مشاهير قادة العالم



الأميرال نلسون

١٧٥٨ - ١٨٠٥

تأليف

بسام العسلي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

مشاهير قادة العالم

الأميرال نلسون

١٧٥٨ - ١٨٠٥

تأليف

بسام العسلي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقيا موكيالي بيروت ـ ص.ب : ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨١



الأميرال نلسون

١٧٥٨ - ١٨٠٥

تأليف
بسام العسلي



الأميرال نلسون



النصب التذكاري للأميرال نلسون في ساحة الطرف الأغر ـ لندن ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يقف تمثال نلسون فوق نصب تذكاري شامخ، يرتفع عالياً ليطاول الضباب، في وسط ساحة من أجمل ساحات العاصمة البريطانية (لندن) وأكثرها سناء وبهاء، هي الساحة التي حملت اسم آخر وأعظم معركة خاضها الأميرال نلسون والتي عرفت في التاريخ باسم (معركة الطرف الأغر). غير أن شهرة نلسون لم تبرز من خلال معركة الطرف الأغر - فحسب - وانما جاءت مقترنة بسجل حافل ضم مجموعة كبيرة من المعارك البحرية الظافرة والانتصارات الحاسمة، التي لم تكن أقلها أهمية أو شهرة (معركة النيل أو معركة أبي قير) فمعركة (سان فانسان) فمعركة (سانتا كروز) فمعركة (كوبنهاغن). وكانت هذه المعارك بمجموعها نموذجاً للصراع البحري الذي فتح أمام بريطانيا أبواب العالم.

لقد نشأ نلسون في البحر، وعاش فيه، ومات بين أمواجه. وعاصر في حياته أحداثاً مثيرة، لم يكن أقلها انتصار الثورة الأمريكية، ثم انتصار الثورة الافرنسية، مع ما تبع ذلك من صراعات دولية شاملة. وكانت بريطانيا أمام

أحد خيارين، إما الاستسلام لمنطق التحولات الجديـدة، وإما التصدي لها ومجابهتها، وكان أن لجأت إلى الخيار الثاني، فكان لا بد لها من خوض الصراع في البر والبحر، وأمكن لها تحقيق الانتصارات الحاسمة بفضل توافر رجال لها من أمثال نلسون، أدركوا واجبهم في هذا الصراع، وخاضوه حتى نهايته بضمير المواطن المؤمن بوطنه، والمخلص لأهدافه حتى أبعد حدود الاخلاص.

لم تكن بريطانيا ـ الجزيرة ـ وانكلترا ـ الدولة البحرية ـ تجهل أهمية القدرة البحرية أو تتجاهلها، لا سيما بعد أن بدأت بواكير الثورة الصناعية في التفجر، وبعد أن تعاظمت أهمية التجارة الدولية، وبعد أن ظهرت دول منافسة جديدة أخذت في التطلع إلى أفق ما وراء البحار (وبصورة خاصة اسبانيا والبرتغال،ثم فرنسا). ولهذا كله، فقد أعادت بناء قدرتها البحرية، وانصرفت لدعم أساطيلها، وظهر نلسون تعبيراً عن هذه الفترة ـ فترة البداية الجديدة لتعاظم القدرة البحرية البريطانية، ولقد رافقت هذه المرحلة التاريخية مجموعة من اسماء قادة البحر، غير أن شهرتهم لم تتمكن من مطاولة شهرة نلسون أو الوصول إلى مستواها.

لقد تميز نلسون بمجموعة من الفضائل الحربية التي أهلته، بصورة طبيعية، لبلوغ أهدافه وتحقيق انتصاراته، ولعل من أبرز فضائله: البحث الدائم عن المعركة، والامساك أبداً بالمباغتة، والتصميم العنيد لانتزاع النصر، والكفاءة القيادية العالية في التخطيط للمعركة وإدارتها. وكان يدعم من هذه الفضائل قدرة نلسون على اكتساب ثقة مرؤوسيه ومحبتهم له واخلاصهم في خدمته. ولم تكن طريق نلسون خالية من الأشواك، فقد كانت انتصاراته سبباً في استثارة خصومة حاسديه واقرانه ممن لم تمكنهم طموحاتهم وكفاءاتهم من بلوغ مرتبته، فمضوا، كما هي العادة، في الكيد له، غير انهم لم يتمكنوا من كسف شمسه المشرقة والتي أضاءت لها سماء بلاده المحتجبة وراء سحب الضباب.

لقد استطاع نلسون احكام الحصار البحري حول فرنسا (نابليون

بونابرت) وتمكن من القضاء المستمر على قدرة فرنسا البحرية، الأمر الذي دفع نابليون إلى البحث عن انتصارات قارية - برية - ويدخل غزو نابليون لروسيا ضمن هذا الإطار، وهنا اصطدم نابليون، بسندان (كوتوزوف). فكانت مطرقة نلسون البحرية، وسندان كوتوزوف البري هما الجهاز العسكري المتكامل الذي استنزف قدرة فرنسا الامبراطورية، وهوى بها إلى مرارة الهزيمة في واترلو.

ولقـي نلسون مصرعه قبل موت خصمه نابليون بونابرت. ومات كوتوزوف أيضاً قبل موت خصمه، وعاش نابليون بعد موت خصميه العنيدين، «ومن عاش بعد عدوه يوماً فقد بلغ المنى». غير أن منى نابليون لم تستمر طويلاً، فقد أثمرت نتائج انتصارات قائدي البر والبحر - الروسي والانكليزي - بعد موتهما، وتدحرج نابليون من على عرش امبراطوريته، وذهب منفياً ليقضي بقية حياته في جزيرة سانت هيلانه، وشتان بين الميتتين، ميتة تحت ظلال السيوف وميتة في المنفى.

لقد كانت اصداء انتصارات نلسون البحرية، تنعكس قوية على صفحة القارة الأوروبية. وكانت أصداء انتصارات كوتوزوف البرية، تنعكس بقوة على صفحة الصراع في البحر، وكان الهدف واحداً - القضاء على نابليون وامبراطوريته - فهل كانت طبول المجد تقرع لمصلحة نابليون أم لمصلحة خصومه؟ لقد حشدت أوروبا كل قواتها واستنفرت كل إمكاناتها لخوض الصراع ضد رجل واحد - هو بونابرت - وضد أمة واحدة هي فرنسا. ولا ريب أن ذلك وحده كافياً لإبراز عظمة فرنسا وامبراطورها بونابرت، غير أن ذلك لا ينتقص بحال من الأحوال كفاءة أولئك الذين قادوا الصراع البحري والبري. في ظروف غير مناسبة في كثير من الأحيان، وأمكن لهم تحويل المدّ إلى جزر. ويأتي نلسون في مقدمة أولئك القادة - الرجال -.

ويمضي نلسون، وتبقى كلماته الأخيرة تجسيداً لخلاصة حياته: **«انني راض عن نفسي، شكراً لله أن مكنني من أداء واجبي»**.

بسام العسلي

الوجيز في حياة الأميرال نلسون
١٧٥٨ - ١٨٠٥

١٧٥٨ ولادة نلسون في بيرنهام ثورب - في نور فولك.

١٧٧٠ إدخال نلسون سلاح البحرية، وإرساله إلى الهند الغربية بتأثير من عمه (الكابتن سوكلين)[١]

١٧٧٣ إرسال نلسون إلى كاراكاس للخدمة فيها.

١٧٧٤ إعادته إلى الهند الغربية.

١٧٧٦ رجوعه إلى الوطن - انكلترا -

١٧٧٧ اجتياز نلسون لاختبار رتبة ملازم.

١٧٧٩ ترفيعه إلى رتبة نقيب بحري (كابتن).

١٧٨٠ خدمة نلسون في نيكاراغوا - وتدهور حالته الصحية.

١٧٨١ قيادة نلسون للحراقة (فرقاطه) - آلبيمارل -[٢] فـي بحر الشمال والبلطيق ونيوفوندلاند وأمريكا الشمالية.

---

(١) الكابتن سوكلين: MAURICE- SUCKLING

(٢) البيمارل: ALBEMARLE.

١٧٨٣ زيـارة نلسون لفرنسا، ثم قيادته الحراقة (بوريـس)[٣] فـي الهند الغربية.

١٧٨٧ زواج نلسون من (فرانس نيسبت)[٤]

١٧٩٣ تعيين نلسون لقيادة السفينة الحربية (آغا ممنون) التي كانت مسلحة بـ (٦٤) مدفعاً. واستمراره في قيادتها حتى سنة (١٨٠٠)

١٧٩٧ قيادته لمعركة (سانتا كروز ـ دو ـ تيناريـف)[٥] وفقده لذراعه (٢٤ تموز ـ يوليو).

١٧٩٨ أول تموز ـ يوليو ـ (معركة النيل ـ أبي قير) وانتصار نلسون.

١٨٠١ معركة كوبنهاغن. وترفيع نلسون لرتبة أميرال، وتعيينه قائداً عاماً.

١٨٠٣ تعيين نلسون قائداً لأسطول البحر الأبيض المتوسط.

١٨٠٥ انتصاره في معركة (الطرف الأغر) وإصابته إصابة قاتلة واستمراره في إدارة المعركة حتى النصر، ثم موته وهو يردد (إنني راض عن نفسي، شكراً لله أن مكنني من أداء واجبي» وحمله إلى نكلترا ـ ودفنه في كنيسة (سان بول)[٦]

---

(٣) بوريس: BOREAS

(٤) فرانس نيسبت: FRANCES- NISBET

(٥) سانتاكروز ـ دو ـ تيناريف: SANTA - CRUZ DE TENERIFE

(٦) سان بول ـ SAINT - PAUL CATHEDRALI

«كانت معركة الطرف الأغر هي المعركة الحاسمة فعلاً في الحروب النابوليونية»

الرئيس. و. ويلسون

الفصل الأول

١ ـ مدافع ڤالمي.

٢ ـ الصراع البحري الانكليزي ـ الافرنسي.

آ ـ معركة سانت فانسان.

ب ـ المأزق البريطاني.

ج ـ معركة النيل (أو معركة أبي قير).

د ـ متحولات الصراع.

٣ ـ معركة (الطرف الأغر).

٤ ـ نيلسون، وإدارة المعركة.

٥ ـ المعركة الحاسمة.

١ ـ مدافع ڤالمي.

انقض رعاع باريس على (سجن الباستيل) وذبحوا حاميته، في يوم ١٤ تموز ـ يوليو ـ ١٧٨٩. وعندما نقل هذا النبأ إلى الملك لويس السادس عشر، قال متعجباً: «إذن فهناك تمرد!» فأجابه دوق (ليانكور)[١]: «كلا يا مولاي. إنها ثورة!» وانطلقت الشرارة التي لم تحرق السهل الفرنسي فحسب، بل امتدت لتحرق بلظاها كل سهول أوروبا. ذلك أن (روح الثورة) وماطرحته من مبادىء قد جعلت الأرض تهتز من تحت عروش ملوك أوروبا وامرائها، وصحيح أن (عالم الثورات) لم يكن غريباً على أوروبا، وصحيح أيضاً أن ما طرحته (الثورة الفرنسية) يتشابه في بعض أسسه مع ما طرحته الثورة الأمريكية التي انتهت في سنة (١٧٨٣) باستقلال أمريكا وقيام نظام جمهوري. غير أن التأثيرات الأمريكية أضعف من أن تخترق المحيطات

(١) ليانكور (LIANCOURT) مركز دائرة لواز: LOISE في (كليرمونت: CLERMONT).

في ذلك العهد لتصل إلى الشعوب الأوروبية التي كانت خاضعة لحكم (الملوك المستبدين) ولتعمل على تحريضها من أجل تغيير واقعها. وهكذا بدأ ملوك أوروبا في العمل بوسائلهم من أجل انقاذ الملك وأفراد عائلته ـ الذين أصبحوا رهائن في سجون الثورة ـ. حتى إذا ما أعلن يوم ٢١ حزيران (يونيو) ١٧٩١ عن نبأ اعتقال الملك (لويس السادس عشر) في (فارين)[٢] أثناء محاولته عبور الحدود الفرنسية، ثار غضب (ليوبولد الثاني)[٣] وأعلن: «بأن هذه البادرة السيئة أساءت إلى شرف الملوك» وحذا حذوه (غليوم الثاني)[٤] ملك بروسيا، الذي أعلن عن استعداده لتقديم الدعم اللازم لإنقاذ الملك الفرنسي. وأخذت الأمور تزداد سوءاً، فأعلنت فرنسا الحرب على النمسا في ٢٠ نيسان (إبريل) ١٧٩٢، وهي الحرب التي استمرت حتى العام ١٨١٥. ولم يتخللها سوى فترة توقف قصيرة. وقبل إعلان هذه الحرب بسنتين (وفي ٢٠ أيار ـ مايو ـ ١٧٩٠) كان خطيب الثورة (ميرابو)[٥] قد تنبأ ببصيرة رائعة عن نوع الحرب التي ستنشب، إذ قال أمام المجلس الوطني للثورة: «إني أوجه السؤال إليكم لتقدروا ما إذا كان باستطاعتنا أن نكون أكثر ثقة بأننا لن نخوض إلا حروباً عادلة وفي ظروف متكافئة، إذا ما فوضنا المجلس الوطني فقط حق خوض الحرب؟ وهل توقعتم إلى أي مدى يمكن أن تقودنا الحركات

---

(٢) فارين ـ آن ـ آرغون: (VARENNES- EN- ARGONNE) مدينة رئيسية من مدن الموز ـ دائرة فردان: **VERDUN**. وفيها القي القبض على الملك الفرنسي لويس السادس عشر.

(٣) ليوبولد الثاني: (LEOPOLD- II) امبراطور جرماني ـ ولد في فيينا سنة ١٧٤٧ وهو شقيق (ماري انطوانيت) زوجة الملك الفرنسي لويس السادس عشر. وقد أصبح أمبراطوراً للامبراطورية الجرمانية (النمساوية) لمدة سنتين (١٧٩٠ ـ ١٧٩٢ م).

(٤) غليوم الثاني: (**GUILLAUME II**) / ملك بروسيا (١٧٨٦ ـ ١٧٩٧).

(٥) ميرابو: (MIRABEAU, VICTOR- RIQUETI, MARQUIS DE) اقتصادي فرنسي، من مواليد (بيرتوي: PERTUIS) (١٧١٥ ـ ١٧٨٩) وهو والد خطيب الثورة (ميرابو ـ أونوري غابرييل: MIRABEAU, HONORE- GABRIEL (١٧٤٩ ـ ١٧٩١) الذي عاش حياة قاسية جداً بسبب صلابة والده في معاملته له، وسجنه له سنوات عديدة، الأمر الذي دفعه للفرار إلى خارج وطنه فرنسا، حيث اعتقل في هولاندا، كان من انصار الملكية الدستورية، ومارس تأثيراً كبيراً على الثورة بسبب ما اشتهر به من قوة الحجة وفصاحة البيان، اعدم بسبب تواطئه مع البلاط.

الانفعالية، وإلى أين يقودنا تحريك الشجاعة ورفعة الشأن الكاذبة، وإلى أية درجة من الدرجات يمكن البحث عن الذرائع لتغطية التهور؟ إن أحد الأعضاء يطلب فتح باب الحوار حول الموضوع، في حين يرفع الآخرون أصواتهم عالياً مطالبين بإعلان الحرب. وسترون حولكم بعد قليل جيشاً من المواطنين، وهكذا فإن الوزراء لن يخادعونكم، ولكن ألا تخادعون أنفسكم الآن؟ انظروا إلى الشعوب الحرة، التي تميزت دائماً بحروب أكثر طموحاً وأكثر وحشية. وانظروا إلى المؤتمرات السياسية: إنها تصدر مرسوم إعلان الحرب تحت سحر الانفعال والعواطف المتأججة» وقعت المعركة الحاسمة الأولى بين قوات الثورة الفرنسية والقوات المتحالفة ضدها في ميدان (ڤالمي)[٦] يوم ٢٠ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٧٩٢. وكانت القوات المتحالفة (البروسية بالدرجة الأولى) تعمل تحت قيادة (برونسويغ)[٧]. بينما كانت القوات الفرنسية تعمل تحت قيادة (ديموريه)[٨] وقد اتخذت القوات المتحاربة مواقعها، واحتلت المدفعية البروسية المكونة من (٥٨) مدفعاً مرابضها في مواجهة المدافع الفرنسية التي ضمت (٤٠) مدفعاً، والتي

---

(٦) ڤالمي: (VALMY) قرية في المارن (MARNE) قريبة من (سانت مينهولد) اشتهرت بسبب انتصار (ديموريه) و(كيلرمان: **KELLERMANN**) على البروسيين سنة ١٧٩٢.

(٧) برونسويغ (BRUNSWICK, DUC CHARLES- GUILLAUME- FERDINAND) جنرال بروسي (١٧٥٣ ـ ١٨٠٦) قاد الجيوش المتحالفة ضد فرنسا سنة ١٧٩٢ ونشر في كوبلنز COBLENTZ البيان الشهير باسم (بيان برونسويغ) والذي وجهه إلى الشعب الفرنسي باسم القوى المتحالفة وذلك يوم ٢٥ تموز ـ يوليو ـ ١٧٩٢. وقد استثار هذا البيان الباريسيين والجمعية التشريعية الفرنسية بسبب لهجته الاستفزازية، واهتاجت الثورة في اليوم المعروف باسم (يوم ١٠ آب ـ أغسطس ـ ١٧٩٢) وتشكلت على أثر ذلك الهيئة (الكومونه) التي اسقطت الملكية وأعلنت الجمهورية. وقاد (برونسويغ) الجيوش المتحالفة إلى ڤالمي، غير أن (ديموريه) و(كيلرمان) انتصرا عليه. ثم كانت نهايته في معركة (اورستادت) حيث انتصر عليه القائد الفرنسي (دافو) وأصابه بجراح قاتلة، قضى على أثرها نحبه.

(٨) ديموريه: (DUMOURIEZ, CHARLES- FRANÇOIS) جنرال فرنسي (١٧٣٩ ـ ١٨٢٣) انتصر في معركة (فالمي) و(جيماب: JEMAPES) وفتح بلجيكا، أقالته من منصبه الهيئة التشريعية، فانتقل للعمل في صفوف القوات المتحالفة ضد فرنسا، وكان ابن أحد مفوضي الحروب في الجيش الملكي، اشتهر بالانتهازية، ولو أنه كان يعتبر نفسه من كبار العسكريين المشهورين، بسبب ما عرف عنه من جرأة هائلة في اقتحام مواطن الخطر.

اختارت مرابضها على مرتفعات (ڤالمي). وكانت المسافة الفاصلة بين الطرفين في حدود الف وثلاثمائية ياردة. وفجأة هبت عاصفة قوية تبددت لها سحب الضباب، وظهرت الشمس ساطعة، وبدأت المدفعية عملها بشدة وقوة يصعب وصفها، حتى انها تجاوزت لشدتها كل ما عرفته الحروب من قبل ـ كما وصفها شهود المعركة ـ وقد بلغت أعمال القصف ذروتها في الساعة الواحدة من بعد الظهر مما جعل الأرض تهتز من تحت القوات المتحاربة، وقد أطلق الطرفان ـ كل واحد منهما ـ أكثر من (٢٠) ألف قنبلة، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت الخسائر زهيدة، لم تتجاوز (٣٠٠) ضابطٍ وجندي في الجانب الفرنسي، مقابل (١٨٤) في جانب البروسيين. وأثناء ذلك، كان (برونسويغ) يستطلع ميدان القتال، فقام بجولة لمسافة ثلاثين ميلاً، عاد على أثرها فأصدر أوامره إلى القوات البروسية بالاستعداد للهجوم، وانتظمت قوات المشاة البروسية فوراً على نسقين ـ تحت ستار سحاب الدخان ـ. غير أن (برونسويغ) لم يكن مقتنعاً بجدوى الهجوم، ولهذا فقد كان استطلاعه بهدف البحث عن مخرج لتجنب الهجوم. وكان يعتقد أن القصف المدفعي قد حقق أهدافـه، لا سيما وأن القذائف البروسية استطاعت تفجير ثلاث عربات جر كانت تحمل الذخائر، وعلاوة على ذلك كله، فقد كان (برونسويغ) يعتمد في قيادته للقوات على الأساليب التي كانت معروفة وهي (القيام بمناورات كثيرة لتجنب الاشتباك) وقد اكسبته هذه الأساليب شهرة واسعة، إذ مكنته في سنة ١٧٨٧ من احتلال هولاندا، دون اهراق للدماء.

غير أن الموقف في (ڤالمي) لم يكن مشابهاً للمواقف التي عرفها (برونسويغ) من قبل في ميادين القتال. فها هم الجنود الفرنسيون يعودون لاحتلال مواقعهم بعد أن مزقتهم القذائف البروسية، وأرغمتهم على التراجع. وهم إلى ذلك يخوضون معركتهم بروح معنوية عالية، وصرخاتهم تمزق عنان السماء وهم يصيحون (يحيا الوطن ـ عاشت فرنسا ـ عاش قادتنا) ثم ها هم يستأنفون القصف المدفعي، فيما كان القادة البروسيون يطالبون بدعم قواتهم للتقدم. غير أن (برونسويك) لم ينبس ببنت شفة، وتابع تطور المـوقف من

خلال منظاره، وقد اشتد تأثره بصمود المشاة الفرنسيين، فيما كانت قوات الفرسان الفرنسيين تنتظم في صفوف بديعة، غير بعيد عن ميدان القتال حيث السهل الواسع الأرجاء. ثم التفت إلى القادة المحيطين به والذين كانوا ينتظرون أوامره، وقال لهم: «أيها السادة! هل ترون أي نوع من الجنود هؤلاء الذين نقاتلهم. إن هؤلاء الجنود الفرنسيين ينتظرون فقط تحركنا في اتجاههم، لينطلقوا بمشاتهم وفرسانهم في الهجوم ضدنا» ثم توقف وكأنه يتأرجح بين اتخاذ أحد قرارين القيام بالهجوم، أو ايقاف الهجوم. ثم عاد لمتابعة النظر في تحركات القوات الافرنسية، وعندئذ، أصدر أوامره الفورية بانعقاد (مجلس الحرب) الذي حضره الملك. وبعض كبار القادة، وفي هذا الاجتماع، مارس (برونسويغ) دوره للمرة الأولى في هذه الحملة باعتباره قائداً أعلى للقوات، وذلك عندما أعلن قراره التاريخي: «**إننا لن نقاتل هنا**»(*) ولم يكن باستطاعة (الملك) ولا كبار القادة، الاعتراض على هذا القرار، فكان لا بد من فك الاشتباك. وبدأت القوات البروسية في الساعة (١٦٠٠) من يوم **٣٠** - أيلول - سبتمبر - **١٧٩٢** بالتحرك على الطريق الرئيسي، وهدفها الامساك بطريق انسحاب القوات الفرنسية على محور (شالون) و(باريس). وتوقف التراشق بالمدفعية. وفي الليل هطلت أمطار غزيرة، ساعدت القوات الفرنسية على مغادرة ميدان المعركة، وبذلك وصلت معركة (ڤالمي) إلى نهايتها، وهي المعركة التي حشد لها البروسيون قوة من (٣٤) ألف جندي، بينما حشد فيها الفرنسيون (٥٠) ألف جندي.

هناك بعض من الشك في حكمة القرار الذي اتخذه (برونسويك) وصحته، غير أن مما تجدر الاشارة إليه هو أن قوة الجيش البروسي كانت قد تناقصت بسبب انتشار مرض الزحار - وكان فصل الشتاء قد أقبل، وبدأت التحركات على الطرق تتزايد صعوبة باستمرار، ولم يكن خط امداد القوات

(*) كان نص الأمر بالألمانية: (HIER SCHLAGEN WIR NICHT) والمرجع: THE DECISIVE BATTLES OF THE WESTERN WORLD j.f.c. fuller- PALADIN 1972 (2/35- 58)

البروسية مضموناً، ولا مأموناً، وكانت هيئة أركان (برونسويك) غير فعالة ولا تتوافر لديها كفاءات عالية، ولهذا فإن قضية التقدم بسرعة نحو باريس لم تكن موضوع بحث أو نقاش. وحتى لو أمكن له الوصول إليها، فإنه سيصل إليها عندئذ وهو في حالة مستنزفة، وعلى درجة كبيرة من الضعف التي تهدد الجيش البروسي بالفناء والابادة. وبذلك فقد ظهر أنه من المحال على الجيش البروسي بلوغ أهدافه من الحملة. وبذلك تحولت هذه الحملة إلى عمل عقيم، كما توقعها لها (برونسويك) منذ بدايتها. غير أن العامل الحاسم في الموقف، والذي حمل (برونسويك) على اتخاذ قراره، وأقنع الملك البروسي (فريدريك غليوم الثاني) بعدم التدخل، هو ظهور القوات الفرنسية بمثل ما ظهرت عليه من التصميم والعناد. حتى ان كاتب الملك - البروسي - وأمين سره، كتب ما يلي: «لقد أحبطت قوات العدو - الفرنسية - آمالنا، وبرهن قائدها - ديموربيه - ومساعده - كيلرمان -[٩] أنهما على درجة عالية من الكفاءة التي لا تقبل المناقشة. فقد اختارا مواقع رائعة للقوات الفرنسية، وكانت تحت قيادتهما كل بقايا الجيش الفرنسي القديم من الوحدات المقاتلة، وجاء المتطوعون لدعم قدرة الجيش العددية، وكانوا في حالة تسمح لهم للقيام بدور قتالي حقيقي بانضمامهم إلى الوحدات المجربة، المحاربة، والغنية بخبراتها. وكانت خيالتهم، فرسانهم، رائعة في تنظيمها الجديد. لم يكن ينقصهم شيء، في حين كان يلزمنا كل شيء. وكانوا إلى ذلك كله يحتلون مواقع حصينة في جبهتهم ومؤخرتهم على السواء. ولم تكن مدفعيتهم أقل من مدفعيتنا بل كانت معادلة لها. وهذا هو ما أعاق القيادة البروسية عن اتخاذ قرارها بتوجيه ضربة حاسمة لأعدائها» وتجدر الإشارة أيضاً إلى ذلك الحادث الذي وقع في يوم (٣٠ - أيلول - سبتمبر - ١٧٩٢)

---

(٩) كيلرمان: (KELLERMANN, FRANÇOIS- CHRISTOPHE, DUC DE VALMY) ماريشال فرنسا، من مواليد ستراسبورغ (١٧٣٥ - ١٨٢٠ م) انتصر في فالمي (١٧٩٢) وتولى بعد ذلك على التتابع قيادة جيش (الموزل) و(الالب).

وكان له أثره في فك الاشتباك بين القوات المتحاربة في (ڤالمي). ففي هذا اليوم، وقع أحد القادة البروسيين أسيراً في قبضة القوات الفرنسية، عندما قامت هذه القوات بإغارة جريئة على مؤخرة القوات البروسية. وقد أطلق القائد الفرنسي (ديموريبه) سراح الجنرال البروسي بناء على طلب شخصي من الملك البروسي (فريدريك غليوم). وأفاد (ديموريبه) من هذه المناسبة فبعث رسالة إلى الملك البروسي، تعرض فيها للأسباب التي يجب من أجلها إنهاء هذه الحرب. كما أنه أرفق ذلك بإرسال هدية من (١٢) ليبرة من السكر والقهوة لأنه علم بأن الملك البروسي قد افتقد هذه المادة. وأمسك (برونسويك) بهذه الفكرة التي دعمها الملك بسبب وصول معلومات إليه تشير إلى اضطراب الأوضاع في بولندا (بولونيا). وكانت المباحثات بهذا الشأن قد بدأت قبل اسبوع من ذلك، دون الوصول إلى نتيجة. كما كان (ديموريبه) قد بعث مذكرة في يوم ٢٧ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ (هي مذكرته الثانية) بهدف فصل بروسيا عن النسما. غير أن الملك البروسي رفض النظر في أمر هذه المذكرة. **ووصلت الاتصالات إلى نهايتها يوم ٢٩ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ عندما أرسل (ديموريبه) رسالة إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسي (في باريس) طالبه فيها بالاعتدال تجاه بروسيا «لأن الوصول إلى سلام شامل. في رأيه ـ والحصول على شروط مشرفة، هي أفضل لنا من الأخطار التي قد نجابهها في حرب طويلة» لكن حكومة الثورة، لم تستمع إلى نصحه، وأعلنت بوضوح: «بأن الجمهورية لن تناقش الشروط ما لم تنسحب القوات الأجنبية من داخل حدود فرنسا».**

على هذا، قام (برونسويك) بسحب القوات البروسية بمهارة في ليل (٣٠ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ والأول من تشرين الأول ـ اكتوبر). ووصل بها إلى الضفة اليمنى من نهر (الموز). وكان (ديموريبه) قد أصبح منذ يوم ٢٧ أيلول ـ سبتمبر ـ قائداً أعلى للجيوش الافرنسية، فعاد لتنفيذ مخططه السابق ـ لغزو البلاد المنخفضة. ووصل إلى (ڤالانسيين) حيث تولى بنفسه قيادة جيش الشمال، الذي سار به إلى (بلجيكا). وكان يوم (٦ تشرين الثاني ـ نوڤمبر ـ

١٧٩٢) هو موعده مع النصر الحاسم الذي أحرزه في (جيماب)[١٠] وانتصر فيه على (ألبرت) دوق الساكس وتوسكانيا، و(كليرفايت).

لقد كانت معركة (ڤالمي) هي (ماراتون) الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية، ففيها جابهت فرنسا أضخم الجيوش الأوروبية التي كان يتولى قيادتها أشهر قادة العصر، في أيامهم، واستطاعت الجيوش الفرنسية بقيادة (ديموريه) و(كيلرمان) أن تعيد الجيش البروسي إلى بلاده، وأن تعمل بعد ڤالمي على دحر الجيوش النماساوية. وهذا ما دفع أحد الكتّاب المعاصرين للمعركة إلى كتابة ما يلي:

«أصبح كل فرنسي يحمل سيفاً أو يتنكب بندقية، يعتبر نفسه بعد معركة ڤالمي، أنه بطل القضية التي يجب لها أن تنتصر» . كما ذكر كاتب آخر ما يلي: **«سترون هؤلاء الديكة الصغار كم سيرتفعون بأنفسهم على أطراف مهاميزهم، بعد أن عمدتهم ڤالمي بالنيران، اننا خسرنا أكثر من معركة، ولقد غير يوم ٢٠ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٧٩٢ مجرى التاريخ. إنه أعظم أيام هذا القرن وأكثرها أهمية»** وكان (غوته) الشاعر الألماني، والذي كان يحضر المعركة في الجانب البروسي، قد توقع مسبقاً ما ستكون عليه هذه المعركة من الأهمية، عندما قال لمن حوله في مساء يوم **٢٠** أيلول ـ سبتمبر: **«من هذا المكان، وفي هذا اليوم، يبدأ عصر جديد في تاريخ العالم، وفي وسعكم جميعاً أن تقولوا بأنكم حضرتم ولادة هذا اليوم ـ اشراقته»**.

* * *

لقد كانت معركة (ڤالمي) أكثر من مجرد (معركة) أو (حملة). ذلك لأنها أبرزت مجموعة من المتحولات: (فقد انهت حروب الملوك، وبدأت حروب الشعوب). كما أنها انتقلت بهذه الحروب من نطاقها المحدود إلى آفاقها

---

(١٠) جيماب: (JEMMAPES) وتكتب اليوم (JEMAPÈES) مدينة بلجيكية احرز فيها ديموريه انتصاره على القوات النمساوية سنة ١٧٩٢.

الواسعة، وأنهت عصورة المناورات العقيمة لتبدأ عصر المعارك والحروب الدموية، وتجدر الاشارة إلى ما كانت عليه الحروب قبل ذلك في كتابة تعود إلى (سنة ١٦٧٧) جاء فيها ما يلي: «إننا نخوض الحرب كالثعالب لا كالأسود، ونقوم بعشرين حصاراً من أجل معركة واحدة» وبعد عشرين عاماً، كتب كاتب آخر: «من المناظر المألوفة اليوم أن يتمركز جيشان يتألف كل واحد منهما من خمسين ألف جندي، على مرأى من بعضهما بعضاً، ويقضيان حملة بكاملها ـ لمدة سنة ـ متجنبين بعضهما بعضاً. ويرى الجنود خصومهم بالعين المجردة، ثم يتوجها فيما بعد إلى معسكراتهم الشتوية». ويقدم حصار (بيزيغتون)(*) في العام (١٧٩٣) مثلاً كاملاً (للحصار المحدود). إذ أبرمت فيه الهدنة بين الطرفين. ونقرأ عن هذا الحصار:

«هناك جسر ـ كوبري ـ مقام فوق الثغرة، يصل بين المحاصرين، والمحاصرين (بفتح الصاد). وقد أقيمت الموائد في كل مكان. كان الضباط يطعمون زملاءهم بالتبادل. وتقام الحفلات الراقصة، والدعوات والحفلات الموسيقية في الداخل وفي الخارج. تحت الخيام، وفي ظلال الأشجار، ويهرع كل سكان المناطق المجاورة على أقدامهم، أو على خيولهم، أو في عرباتهم للتفرج. وكانت المؤن تصل إليهم من كل مكان بوفرة هائلة يحس بها المرء فوراً. حتى أن الدجالين والمهرجين لم تفتهم فرصة حضور هذه الحفلات. وكأن كل ما يجري أشبه بمعرض جميل، ومكان لقاء يبعث على البهجة». لقد كان الانهاك، واستنزاف قدرة العدو هو المبدأ السائد في كافة الأعمال القتالية خلال عصر (الحرب المحدودة). وكان لذلك أسبابه وعوامله، إذ كان من النادر أن تتوافر الأموال اللازمة لإعالة جيوش دائمة، وكان من الضروري أن تدفع رواتب جنود الجيوش الدائمة طوال أشهر السنة. على عكس جنود الميليشيا الذين لا يتقاضون أجوراً كاملة، وطوال السنة. فكان من الطبيعي بالنسبة للعسكريين المتنورين في هذا العصر، أن يتوضح لهم أن استنزاف

(*) بيزيغتون. PIZZIGHETON.

العدو وسيلة فعالة لكسب الحرب، كما أن تكاليفها أقل من محاولة تدمير جيش العدو في المعركة، وهكذا كان المال، لا الدم، هو العامل الحاسم. فعندما تبدأ خزانة العدو في الافلاس، نتيجة قيام الخصم بمناورات ثابتة تتطلب مهارة كبيرة، وحكماً صائباً، يبدأ مفاوضة خصمه لإقرار السلم بدلاً من أن يواجه الافلاس. وهذا ما اضطر إلى إعطاء المناورات الطويلة الأفضلية على الأعمال الحاسمة.

لقد شنت خلال هذا العصر، برغم هذا الاسلوب السائد من المناورات العقيمة، وأعمال الحصار، معارك كبيرة عديدة. وشهد هذا العصر أيضاً عدداً كبيراً من مشاهير القادة، أمثال (فوبان) و(تورين) و(الأمير أوجين) و (مارلبورو) و(شارل الثاني عشر) و(فيلار) و(موريس دوساكس) و(فريدريك الثاني) و(سوفوروف) وسواهم كثير. ولكن ذلك لا يمنع من الأخذ بالمقولة التالية: «كانت الحرب المحدودة ميزة من أسمى ميزات القرن الثامن عشر، وتشبه نباتات البلاد الحارة. التي تستطيع أن تنمو ضمن إطار حضارة ارستقراطية مميزة، ونحن لسنا قادرين على اتباعها فهي فضيلة من الفضائل التي فقدناها، عبر الثورة الفرنسية».

ولكن، كيف حدث هذا التحول؟

لقد حدث ذلك بفضل (قوانين التجنيد) التي أعادت المجتمعات الأوروبية إلى عصور (القبائل المسلحة) و(العشائر البدائية) والتي عبر عنها (مرسوم مجلس التوفيق) الذي صدر يوم **٢٣** - آب - أغسطس - **١٧٩٣**. وصيغت مادته الأولى، بالشكل التالي:

«من هذه اللحظة، وإلى أن يتم طرد كل الأعداء من أرض الجمهورية، يعتبر كل الفرنسيين مصادرين بصفة دائمة» «وسيذهب الشبان إلى القتال، وسيصنع الرجال المتزوجون الأسلحة، وسينقلون التموين والإعاشة، وستصنع النساء الخيام والملابس، وسيخدمن في المستشفيات، وسيحول الأطفال الملابس القديمة إلى ضمادات صحية، وسينقل المسنون

إلى الميادين العامة لتأجيج شجاعة المقاتلين، وإثارة الحقد ضد الملوك، وللدعوة إلى وحدة الجمهورية» «وستحول المباني القومية إلى ثكنات، والميادين العامة إلى ورش لصنع السلاح، وستغسل أرضية الأقبية لاستخلاص ملح البارود منها» «وستخصص الأسلحة ذات العيارات المناسبة لتسليح المواطنين الذين سيسيرون لملاقاة العدو. أما رجال الأمن الداخلي فسيسلحون ببنادق الصيد وبالسلاح الأبيض» «وستصادر كل خيول الركوب لصالح قطعات الخيالة. أما خيول الجر التي لا تستخدم في الزراعة، فإنها ستجر المدفعية وعربات التموين».

لقد أثارت هذه المادة حماسة النواب إلى درجة هائلة، حتى انهم طلبوا من مقرر المجلس إعادة قراءتها كاملة مرتين، وفي كل مرة منها كانوا يهللون لها ويصفقون وهم يؤمنون بإخلاص بأنهم يحررون أنفسهم من الطغيان. وقد وقف أحد النواب معلقاً، متسائلاً: «ماذا تريدون من هذه المصادرة ؟ قرعة من المجندين ؟ إن القرعة الفرنسية من أجل حريتها، تتألف من كل المواطنين الفرنسيين، ومن كل صناعاتهم ،ومن كل أعمالهم، ومن عبقريتهم، فلنعلن حقيقة كبرى: إن الحرية أصبحت أمراً محققاً لكل المواطنين، ويدين البعض لها بصناعاتهم، والبعض الآخر بثروتهم، ويدين الجميع لها بالدم الذي ينبض في عروقهم». وهكذا صدر القانون الذي ربما لم يصدر مثله قانون في العالم كان له الأثر، أو كان مخصصاً ليمارس أثره بعد صدوره على مستقبل البشرية، كمثل هذا المرسوم الفرنسي - المجهول تقريباً والذي صدر في سنة ١٧٩٣ م.

لم تتحول الحرب إلى حرب غير محدودة فحسب، اعتباراً من شهر آب - أغسطس - ١٧٩٣، بل إنها أصبحت حرباً شاملة في النهاية. حتى إذا ما جاءت سنوات الأربعينات من القرن العشرين، كانت الحياة الإنسانية قد اعتبرت رخيصة جداً إلى درجة أصبح فيها ذبح السكان المدنيين على نطاق واسع هدفاً استراتيجياً مقبولاً، كما كانت المعارك في الحروب السابقة مقبولة. ففي مائة وخمسين عاماً، من بعد صدور قانون التجنيد الفرنسي،

رجع العالم إلى بربرية القبائل البدائية ووحشيتها. وكتب (كلاوزفيتز)[11] معلقاً: «**لقد ألقت الثورة الافرنسية بكل وزن هذا الشعب، ووزن كل قواته في الميزان الذي لم يوزن فيه حتى الآن سوى ثقل جيش محدود، ووزن الواردات المحدودة للدولة، وذلك كله بفضل الثورة الفرنسية** ، وقوة وطاقة مبادئها والحماسة التي قادت الشعب فيها. كان الجيش الفرنسي يتقدم متغطرساً عبر أراضي البلدان المختلفة، تعتريه الدهشة، كما تعتري أعداءه، وهو يرى كم تتفوق القوة الطبيعية للدولة، ومصلحة كبرى بسيطة على تحالف مصطنع، تجد فيه الدول بعضها إزاء البعض الآخر، وهو لا يهتم اهتماماً جدياً في حسابه وتقديراته بالتحالفات السياسية، التي تزن فيها الحكومات الحرب، أو التحالف بقلق، مع أن هذا الحساب هو الذي يضعف قوة الدولة، ويخضع عنصر القتال الشرس للتحفظات الديبلوماسية. ولا يعزى الأثر المعجز للثورة الفرنسية إلى استخدام طرائق حربية جديدية، بل يعزى الأثر الأكبر إلى نظامها السياسي والإداري الذي انطبع بكامله بطابع الحكومة، وبوضع الأمة إلخ. . . وإذا كانت الحكومات الأخرى لم تعرف كيف تقدر هذه الشروط الجديدة، وإذا أرادت أن ترد على انتشار القوات الساحقة، بوسائل عادية، فإن كل هذا يشكل أخطاء سياسية». لقد فسر (الماريشال فوش)[12] هذا الحكم بقوله:

«**أجل! لقد بدأ عصر جديد، هو عصر الحروب القومية المتسمة بإيقاع جنوني، لأن هذه الحروب ستلتهم في المعركة كل موارد الأمة، ولأنها لن تستهدف مصلحة الأسر الحاكمة، ولا غزو مقاطعة من المقاطعات**

---

(۱۱) كلاوزفيتز: (CLAUSEWITZ, KARL-VON) جنرال بروسي، من مواليد بورغ (BURG) (۱۷۸۰ - ۱۸۳۱م) عاصر الحروب النابوليونية، وبقيت كتاباته (في الحرب) أفضل مرجع عن الكتابات العسكرية طوال أكثر من قرن. وكانت (**الحروب النابوليونية**) هي المصدر الأساسي لنظرياته وآرائه.

(۱۲) فوش: (FOCH- FERDINAND) ماريشال فرنسا، ولد في تارب (TARBES) وعاش في الفترة (۱۸٥۱ - ۱۹۲۹) قاد الجيش الفرنسي التاسع في الحرب العالمية الأولى. وأصبح في العام ۱۹۱۸ قائداً عاماً لقوات الحلفاء التي أحرزت النصر. ومن **أشهر كتاباته** (مبادىء الحرب) الذي صدر سنة ۱۹۱۸.

والاستيلاء عليها، بل إنها ستستهدف الدفاع عن أفكار فلسفية أولاً، أو نشرها، والدفاع عن مبادىء الاستقلال، والوحدة، والدفاع عن الميزات اللامادية المختلفة الأنواع ثانياً. ولأنها ستزج في الصراع بمصلحة كل جندي من الجنود وبوسائله، ومشاعره وانفعالاته. أي انها ستستخدم عناصر القوة التي لم تستغل حتى الآن».

لقد وصفت الكتابات العسكرية نظام التجنيد قبل الثورة الفرنسية بما يلي:

«كانوا يجندون القطعات بالتطويع أو بالتعاقد، وبالقوة أحياناً، وغالباً ما كان يتم التجنيد بالخداع والحيلة، إذ يضعون المال سراً في جيب شخص من الأشخاص، ثم يقال له: أنت جندي! ويتم تجنيد معظم الجنود من الطبقات الدنيا في المجتمع. ولهذا كان الانضباط الذي يفرض عليهم قوياً وشرساً. ولما كان الشرف لا معنى له بالنسبة إليهم - وفقاً لما كان يقوله فريدريك الكبير -. فقد كان من الضروري تخويفهم من ضباطهم أكثر مما يخافون الخطر في الحرب. إذ أن أقل تراخ في الانضباط سيحولهم إلى وحوش برابره»(*).

أما بعد الثورة فقد وصفت الكتابات العسكرية التحول في أسلوب نظام التجنيد بما يلي: «كنا نعتمد على الدعاية حتى نجذب آلاف المجندين الذين كانوا يتوافدون إلى مراكز التدريب. وفي **٢٥** نيسان - إبريل - **١٧٩٢** م ولأول مرة، أخذ الجميع يغنون - ينشدون - في فرنسا - نشيد المارسيلييز -(١٣) الذي كان من أكثر الأناشيد الحربية إثارة للمشاعر، بغرض

(*) REF: MAKERS OF MODERN STRATEGY (EDWARD MEAD EARL AND OTHERS.) PRINCETON- UNIVERSITY PRESS 1943. PP. 55.

(١٣) المارسيلييز (LA MARSEILLAISE) أغنية وطنية، أصبحت النشيد الوطني الفرنسي، تم تأليفه في سنة ١٧٩٢ ليكون نشيد جيش الراين. وكان ضابط من ضباط الهندسة اسمه روجيه دوليسل: (ROUGET DE LISLE) هو الذي وضع كلمات النشيد ولحنه، للحامية الفرنسية المقيمة في ستراسبورغ =

إثارة حماسة الجماعات. ولم يهمل الزعماء الديماغوجيون أية حركة من الحركات التي تستطيع إثارة المزاج القتالي للجنود، **وتغذية الحقد على أعدائهم** إلا واتبعوها. مما توافق مع المقولة التالية: **لا يمكن أن تكون هناك دعاية بدون الحقد. أعطوني شيئاً أحقد عليه. وأنا أعدكم بتنظيم حملة دعاية هائلة ضده، في أي مكان، وخلال أربع وعشرين ساعة**». لقد حررت الدعاية الحاقدة، تلك القوة الكامنة في الفرد، مما دفع أحد الفرنسيين للقول: «هذه الدعاية هي تكتيك خبيث، يجدر بالوحوش التي اخترعته، إن خمسين ألفاً من الوحوش الضارية، يتصاعد الزبد من أفواههم غضباً وشراسة، يصرخون كما يصرخ أكلة اللحوم البشرية، وينقضون بأقصى سرعتهم على الجنود، الذين لا يحرك الانفعال شجاعتهم». وهكذا فقد عدل التجنيد أسس الحرب. إذ كانت تكاليف الجيوش من قبله مرتفعة جداً، وبتطبيقه أصبح تجنيد الجنود يتم بسعر منخفض. كانوا في الماضي يتجنبون المعارك، فأصبحوا بعد التجنيد يفتشون عنها، إذ مهما كانت الخسائر كبيرة، فإن في وسعهم تعويضها عن طريق إصدار قوانين الدعوة إلى خدمة العلم لأفراد جدد. ولقد سمح التجنيد لوحده بنجاح السياسة التي اتبعها نابليون، والتي عبر عنها في العام **١٨٠٥** عندما قال لمترنيخ متباهياً: **«بأنه يستطيع أن يسمح لنفسه بخسارة ثلاثين ألف جندي شهرياً. فقد كان سعر الجنود رخيصاً برخص روث الحيوانات»**. أدت هذه التطورات إلى إجراء تغييرات جذرية في المفاهيم العسكرية وتنظيم الجيوش وإدارة الحرب، وقد برزت هذه التطورات في موقعة (ڤالمي) التي كانت نقطة التحول الحاسمة، لا في حياة الثورة الافرنسية وحدها، وإنما في مسيرة الأحداث على مسرح أوروبا

= تحت عنوان (نشيد حرب جيش الراين) غير أن الجنود المارسيليون كانوا أول من أنشد؛ في باريس، فعرف النشيد باسم (المارسيلييز) وبقي هذا الاسم هو الشائع والمعروف، ويبدأ بالكلمات التالية: «نتطوع في الجيش... من كل البيوتات عادة إلخ:

IL.ARRIVE FREQUEMMENT QUE LA DERNIERE STROPHE. NOUS ENTRER-
ONS DANS LA CARRIERE. ETC...

كلها. فقد شعر فرنسا الثورة بما تمتلكه من القدرات الهائلة، فمضت في طريقها، طريق التحدي. **وفي ٢١ من كانون الثاني (يناير)١٧٨٣، انهالت الفأس محدثةً صوتاً صامتاً مكتوماً، وحسمت حياة ملك. وكانت حياة الملك التي انتهت هي حياة لويس السادس عشر. وبحسمها صاح دانتون قائلاً: «إن تحالف الملوك يهددنا، ونحن نلقي بين أقدامهم برأس ملك، كرهينة للمعركة»**. ولكن أين هم الجنود الذين ترتب عليهم تنفيذ هذا التحدي المحزن؟ وكان لا بد من تجنيد قرعات جديدة، وأصدر (مجلس التوفيق) مرسوماً بتجنيد نصف مليون جندي (٥٠٠ ألف) بصورة الزامية. وبسبب هذا انفجر العصيان في الفاندي. وسارت الجمهورية إلى الحرية على أشلاء جثث رعاياها. إذ كانت المذابح التي تعرض لها المواطنون الفرنسيون في **(مذابح الفاندية)**(١٤) تفوق حد الوصف، ويكفي للبرهان على ذلك قراءة فقرات مما تضمنه تقرير أحد القادة الذين اشتركوا في القضاء على التمرد: **«لقد سحقت الأطفال تحت سنابك الخيول، وذبحت النساء اللواتي لن يلدن لصوصاً بعد الآن. ولم آخذ أسيراً واحداً يوجه لي اللوم. فقد أبدتهم كلهم. إن الطرق مزروعة بالجثث، ونحن لا نقبل مبدأ الأسر، لأننا لو أسرناهم لاضطررنا إلى تغذيتهم بخبز الحرية»**.

لقد استطاع قادة الثورة تفجير الحقد الذي كان لا بد له من رسم ابعاده الكاملة في الداخل كما في الخارج. وكان من المحال على أية دولة

---

(١٤) الفانديه: (VENDEE) إقليم من سهل بواتييه القديم (Poitou) ناحية لاروش- سيريون LA ROCHE SUR YON وهي تضم ثلاث دوائر-مديريات - و(٣٠) مركزاً و(٣٠٦) قرية. وقد اشتهرت فانديه بالمذابح التي أخذت اسم (حرب الفانديه: LA GUERRE DE VENDEE) بسبب الثورة التي أعلنت فيها من قبل فلاحي بريتانيا سنة ١٧٩٣ ومعهم فلاحي بواتييه وآنجو. وكانت الثورة بقيادة كاتولينو (CATHELINEAU) و(شاريت: CHARETTE) و(ستوفيه: STOFFET) والقسيس بونشامب: (BONCHAMP) موجهة ضد القوانين المدنية والكنسية التي أصدرتها الثورة. وقد استطاع ثوار الفانديه إحراز انتصارات أولية في (فونتينوي) و(صومور) إلا أن جيوش الثورة بقيادة (كليبر) و(مارسو) تمكنت من اضعاف التمرد (١٧٩٥ - ١٧٩٦) ثم جاء الجنرال هوش (HOCHE) فأمكن له القضاء قضاء مبرماً على الثورة في كافة أنحاء الفانديه.

أوروبية عزل نفسها، أو التقوقع داخل حدودها، لتتجنب ذلك الدمار المندفع من أعماق البركان المتفجر. وبدأت دوائر الصراع في الاتساع تدريجياً لتمتد من قلب فرنسا حتى تشمل أوروبا كلها ولتمتد بعد ذلك حتى تصل الشرق (حملة نابليون على مصر) وروسيا القيصرية (حملة نابليون) في إطار (حروب الثورة - والحروب النابوليونية). ولقد استطاعت (أوروبا وروسيا) أن تتدبر أمرها، بعد مجموعة من الانتصارات والهزائم(*) وكان لانكلترا دورها المباشر وغير المباشر في كل هذه الحروب (ولا سيما في حروب شبه الجزيرة الايبريه - الاندلس أو اسبانيا - حيث زجت قواتها ضد القوات الفرنسية بصورة مباشرة) غير أن الصراع الأساسي الذي قادته انكلترا ضد فرنسا هو ذلك الصراع الذي كان مجاله الأساسي في البحر. وقد استطاعت انكلترا بواسطة هذا الصراع أن تجرد فرنسا من ممتلكاتها فيما وراء البحار (في الأمريكيتين خاصة) وأن تفرض عليها قيوداً صارمة في تحركها التجاري والعسكري. وهنا يظهر اسم - الأميرال نيلسون - الذي اضطلع بدور الريادة في هذا المجال. وخاض معركتين حاسمتين - على الأقل - ضد القوات البحرية الافرنسية، وهما (معركة النيل - أبي قير) و(معركة الطرف الأغر). الأمر الذي مهد لإحراز انتصارات أخرى في البر. أو في الصراع القاري. فكان دور البحرية الانكليزية في ذلك، معادلاً للمجهود الحربي الذي خاضته كل الجيوش البرية الأوروبية. وهذا ما يعطي للصراع البحري في تلك الحروب أهميته الحاسمة.

٢ - الصراع البحري الانكليزي - الافرنسي.

خضعت تحركات السياسة الخارجية للثورة الافرنسية، بعد معركة ڤالمي، لفكرتين أساسيتين يمكن تصنيف أنصارهما ضمن فئتين: النظريين أو

(*) يمكن مراجعة بعض ملامح هذه الحروب في الكتابين السابقين من هذه المجموعة (مشاهير قادة العالم) وهما: نابليون وكوتوزوف.

الخياليين، ثم الواقعيين أو العمليين. فأما الأوائل فهم (الاسكندريون(*) في تطلعاتهم والذين يطمحون إلى التوسع الجديد في العالم على قاعدة (الأخوة الانسانية). أما الآخرون فهم (القياصرة)(**) الذين كانوا يريدون القيام بغزو الأقاليم المجاورة، وفتحها، لا من أجل دعم فرنسا وزيادة قوتها فحسب ـ من الناحية العسكرية ـ وإنما أيضاً من أجل مشاطرتها الدمار الاقتصادي. والفكرتان، على كل حال، تطالبان الثورة بالتوجه نحو الخارج، سواء من أجل مشاطرة الشعوب الأخرى ـ الحرية ـ التي غنمتها فرنسا، أو من أجل نهب تلك الشعوب واخضاعها للحكم الافرنسي.

لقد توجه (ديموررييه) بعد معركة ڤالمي إلى بلجيكا والبلاد المنخفضة، وقام باحتلالها، تحت تأثير(فكرة ثاتبة) وهو غير مدرك (أو عن تصميم وإدراك لا فرق في ذلك) بأنه ينفذ الفكرتين معاً: فقد كانت البلاد المنخفضة بالنسبة للنمسا هي مورد الثروة، وفي الوقت ذاته من الأقاليم الطامحة لإلغا دور الوصاية النمساوي. وفي الوقت ذاته، فإن باستطاعة خليج (شيلدت) عند ضمه إلى فرنسا، أن ينافس خليج (آنتويرب ـ أو آنفر) هذا إن لم يستطع القضاء على (لندن) كمركز للتجارة العالمية. وقد تحقق ذلك نسبياً على الأقل؛ بالانتصار الذي حققه (ديموريه) في موقعة (جيماب)، حيث أعلن (مجلس التوفيق) بعده مباشرة: بأن (شيلدت) بات مفتوحاً للتجارة، وأن ـ فرنسا الثورة ـ مستعدة لتقديم الدعم العسكري لكافة الشعوب المناضلة من أجل حريتها. وقد كان هذا التهديد للبلاد المنخفضة هو الذي دفع انكلترا للدخول في دائرة الصراع الذي استمر طوال المائة السنة التالية، وهو التهديد الذي اقترن بإقدام فرنسا على إعلان الحرب ضد كل السلالات المالكة (أو العروش الملكية) في يوم ٢١ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٧٩٣، حيث

(*) الاسكندريون: (ALEXANDRIAN) نسبة إلى الفاتح الاسكندر المقدوني الذي فتح العالم، وأقام نظامه على أساس دمج الشعوب، والتزاوج فيما بينها، وإقامة حضارة مشتركة تصنعها كل الشعوب،

(**) القياصرة: (CAESARIANS) نسبة إلى يوليوس قيصر، ومعاصريه **وخلفائه** من الرومان الذين احتلوا كل البلاد المتاخمة لحوض البحر الأبيض المتوسط، وأقاموا على أنقاضها الأمبراطورية الرومانية.

تم إعدام الملك لويس السادس عشر. ولم يعد هناك مجال للخطأ في تفسير ما تعنيه الثورة الفرنسية، وكان ذلك بمثابة صدمة عنيفة هزت الحكومة البريطانية التي طلبت بعد يومين فقط إلى سفير فرنسا في لندن (الماركيز شوفلان) مغادرة انكلترا خلال مدة أقصاها ثمانية أيام. وقد أثار طرد السفير الفوري غضب (مجلس التوفيق) الذي أعلن الحرب ضد بريطانيا العظمى وهولاندا في اليوم التالي لمغادرة الماركيز (شوفلان) انكلترا. وبعد شهر أيضاً وجهت حكومة فرنسا انذاراً إلى اسبانيا. وبدأت بذلك الحرب التي استمرت طوال اثني وعشرين عاماً، لم تتوقف خلالها إلا لفترات قصيرة.

كانت آفاق هذا الصراع رحبة جداً بحيث انها تجاوزت حدود أوروبا، على الرغم من أن موازين القوى في هذا الصراع لم تكن متكافئة ولا متعادلة في معظم الأحيان، وكانت المشكلة الأساسية بالنسبة لفرنسا هو البحث عن الوسيلة المناسبة لإخضاع انكلترا وفرض الهيمنة عليها، سواء كانت هذه الوسيلة مباشرة بالسيطرة على القنال الانكليزي، أو بطريقة غير مباشرة بعزل انكلترا عن القارة الأوروبية، وخنق تجارتها مع المستعمرات فيما وراء البحار. غير أن ذلك لم يتضح تماماً إلا بعد انهيار التحالف الأول ضد فرنسا في سنة ١٧٩٥، وإلا بعد أن قام (مجلس التوفيق) في السنة التالية بافساح المجال لحكومة المديرين ـ الفرنسية ـ.

لقد وضعت حكومة المديرين ـ الخمسة ـ سياستها على أساس أن استمرار الحرب في الخارج، سيدعم من سلطتها الداخلية، فمضت مسرعة عبر هذا الاتجاه، وشهدت سنة ١٧٩٦ مجموعة من الانتصارات لمصلحة الثورة الافرنسية، ووصلت هذه الانتصارت ذروتها في سنة ١٧٩٧ حيث قام نابليون بونابرت بغزو شمال إيطاليا، وأرغم النمسا على قبول شروط معاهدة (كامبوفورميو) التي قضت بالتنازل لفرنسا عن لومبارديا، والبلاد المنخفضة التي كانت تابعة من قبل للنمسا. وفي الوقت ذاته، أخذت حكومة المديرين في بذل اهتمام متعاظم اعتباراً من حزيران ـ يونيو ـ ١٧٩٦ ـ للقيام بهجمات بحرية ضد انكلترا وايرلندة، ونجم عن ذلك قيام القوات الافرنسية بغزو

اجهاضي لايرلنده في كانون الأول - ديسمبر - أعقبه في شباط - فبراير - ١٧٩٧ قيام العقيد (تيت) بانزال مضحك في (ويلز) لم ينتج عنه شيء. وفي هذه الظروف، وقعت معركة (سانت فانسان) البحرية يوم ١٤ شباط - فبراير - ١٧٩٧ بين الاسطولين الانكليزي والاسباني، والتي كانت من أشهر المعارك البحرية في تلك الفترة وأكثرها أهمية. وقد أبرزت المرحلة الأولى من هذه المعركة ما توافر لضابط البحرية (نيلسون) من الكفاءة العالية التي عرفها فيه رجاله في البحر، واعترف له بها أصدقاؤه وأعداؤه على السواء.

آ - معركة سانت فانسان[١٥]

كانت اسبانيا قد عقدت مع حكومة الثورة الافرنسية تحالفاً في سنة ١٧٩٦ - الأمر الذي وضعها في حالة حرب مع انكلترا، نظراً لأن هذه الأخيرة كانت تعيش حالة الحرب مع فرنسا. وكان الاسطول الاسباني خلال هذه الفترة في حالة إهمال تامة، وعلى الرغم من ذلك فقد صدرت إليه الأوامر بالتوجه إلى عرض البحر، وكان هذا الأسطول يضم (٢٧) سفينة تحت قيادة (دون - خوسيه - دوكوردوبا)[١٦] وكلها من السفن الحديثة. غير أن بحارتها وسدنتها كانوا من الأغرار الذين تم جمعهم على عجل، علاوة على أولئك الذين كانوا يعملون على أرض السواحل، وحملوا على ركوب البحر بالقوة. وبالرغم من ذلك، فإنه لم يتوافر لكل سفينة من السفن الحربية أكثر من ثمانين بحاراً للقيام بمتطلباتها والعمل على أسلحتها. أبحر الأميرال (دوكوردوبا - قرطبة) بهذه القوة، من غير إعداد مسبق للسفن وبحارتها، وقسمها إلى مجموعتين منفصلتين. كانت الرياح الغربية والجنوبية الغربية تهب برفق، ووصلت السفن إلى مسافة (٢٥ - ٣٠) ميلاً بعيداً عن (الكاب). وقد شاهد الأميرال الانكليزي (سيرجون جرفيس)[١٧] هذه

---

(١٥) معركة (سانت فانسان): (BATTLE OF SAINT VINCENT) نسبة إلى رأس في البرتغال.

(١٦) دون - خوسيه - دوكوردوبا: (DON JOSE DE CORDOBA).

(١٧) سير جون جرفيس: (SIR JOHN JERVIS).

السفن عند وصولها إلى تلك المنطقة وهي في حالة تفضح اضطرابها وسوء إدارتها. وكان (جون جرفيس) قد أبحر من لشبونة بمهمة مطاردة الأسطول الاسباني وليس معه أكثر من (١٥) سفينة. وها هو الآن يقف بسفينته في أقرب موقع من مواقع السفن الاسبانية. ولم يتردد (جرفيس) فأصدر أوامره على الفور ببدء القتال. وكانت إلى جنوبه مجموعة من (٦) سفن اسبانية تفصلها ثغرة واسعة جداً عن بقية سفن الاسطول الاسباني. وانتظمت السفن الانكليزية على شكل رتل أحادي، وأخذت طريقها للمرور من بين المجموعتين الاسبانيتين. وبذلك باتت السفن الستة وهي معزولة عن بقية أسطولها. وقد بذلت هذه السفن الستة محاولة ضعيفة لتجنب الوقوع في الفخ المنصوب لها. غير أنها لم تلبث أن أصبحت تحت رحمة (جرفيس) عندما وصل بسفنه إلى غرب السفن الاسبانية الستة، والتي باتت عاجزة عن مجابهة النيران المحكمة والسريعة للسفن البريطانية. ولم تتمكن غير سفينة اسبانية واحدة من اختراق خط السفن البريطانية، والانضمام إلى كتلة السفن الرئيسية للاسبانيين، واللحاق بمؤخرتها أثناء محاولتها الانسحاب، والابتعاد عن ميدان الاشتباك. لقد أصبحت السفن البريطانية بمرورها عبر الثغرة الفاصلة بين السفن الاسبانية، وهي مرغمة على التحرك بالتتابع لمقابلة اتجاه الريح الذي كانت تتحرك السفن الاسبانية معه. فلو استمرت السفن البريطانية في تحركها على هذه الصورة، فإنها كانت ستجد نفسها في النهاية مبتعدة عن هدفها، الأمر الذي من شأنه إتاحة الفرصة أمام السفن الاسبانية لمتابعة تحركها مع الريح وتضليل السفن الانكليزية. والابتعاد عن ميدان المعركة. غير أن محاولة الاسبانيين للخداع والتخلص من المعركة قد أحبطت بفضل حركة نيلسون المستقلة والمباغتة. لقد كان (نلسون) يتولى قيادة سفينة (القبطان - المسلحة بـ ٧٤ مدفعاً) والتي كانت تحتل موقعها كثالث سفينة في المؤخرة. وقد أدرك (نلسون) خطورة الموقف، فلم ينتظر تعليمات قائده (جرفيس) وأمسك بالمبادأة، فمضى في سفينته باتجاه الغرب. وقذف بها في وسط القوس الذي كانت تشكله السفن الاسبانية. وشاهد (جرفيس) هذه

الحركة، فأقر صحتها على الفور، وأصدر أوامره إلى بقية سفن المؤخرة بالانضمام إلى (نلسون) واللحاق به. واندفعت السفن البريطانية للالتحام بقطع الاسطول الاسباني. وكانت ردود فعل الاسبانيين بطيئة جداً بسبب افتقار بحارتهم للخبرة. وعدم قدرتهم على التعامل مع سفنهم بكفاءة. فكان البحارة عاجزون عن تنفيذ أوامر ضباطهم، وحتى عن فهمها. ولم تلبث السفن الاسبانية أن أخذت في ضرب بعضها بعضاً. وأفاد نلسون من عجز الاسبانيين عن استخدام مدافعهم بكفاءة، فاستولى على سفينة القيادة ذات المائة والثلاثين مدفعاً (سانتيسيما ـ ترainيداد)[١٨] وهي بحالة سليمة تقريباً. وتمكنت سفينة نلسون (القبطان) من الاستيلاء بسرعة بعد ذلك ـ وعلى التتابع ـ على سفينة (سان ـ خوسيه ـ ذات المائة والاثني عشر مدفعاً)[١٩] ثم (سان نيكولاس ـ ذات الثمانين مدفعاً)[٢٠]. واستولى البريطانيون على سفينتين أيضاً هما (سالفادور ديل موندو)[٢١] المسلحة بمائة واثني عشر مدفعاً و(سان ايزيدرو ـ ذات الأربع وسبعين مدفعاً)[٢٢].

أصيبت السفينة (سانتيسيما ـ ترينيداد) بعطل جعلها عاجزة عن التحرك. وبذلك حصل البريطانيون على أربع سفن ضخمة من سفن أعدائهم. وكانت الساعة (١٥,٣٠) عندما أصدر (جِرفيس) أوامره بإيقاف الاشتباك. مكتفياً بما حصل عليه من (غنيمة ثمينة) بدون ثمن مقابل، وسمح لبقية سفن الاسطول الاسباني بالانسحاب إلى (قادس). ومنح (جرفيس) على أثر ذلك لقب (أمير سان فانسان) بنتيجة انتصاره في المعركة التي حررت الحكومة البريطانية من القلق الذي كانت تعانيه بتحالف اسبانيا مع فرنسا، كما أكدت هذه المعركة لبريطانيا قدرتها على ضمان سيادتها البحرية المطلقة.

---

(١٨) سانتيسيما ـ ترينيداد: (SANTISSIMA TRINIDAD)

(١٩) سان خوسيه: (SAN JOSEF)

(٢٠) سان نيكولاس: (SAN NICOLAS)

(٢١) سالفادرو ديل موندو: (SALVADOR DEL MUNDO)

(٢٢) سان ايزيدور: (SAN ISIDOR)

ب ـ المأزق البريطاني.

جابهت بريطانيا بعد ذلك مباشرة موقفاً من أصعب المواقف التي عرفها التاريخ البريطاني، وأكثرها حرجاً. ففي يوم ١٥ نيسان ـ ابريل ـ ١٧٩٧، أعلن بحارة اسطول القنال في (سبيتهيد) التمرد والعصيان، ولحق بهم اسطول بحر الشمال، الذي كان تحت قيادة الأميرال (دونكان) وذلك في يوم ٢ أيار ـ مايو ـ. وكان من المتوقع أن يقوم الأسطول الهولاندي في هذه الفترة، وتحت إشراف القيادة الافرنسية، بالبحث عن الأسطول البريطاني الرئيسي الذي كان ينسحب في اتجاه ايرلنده. وكان الأسطول الهولاندي يستعد للإبحار بقوة (٤٢) سفينة نقل بهدف غزو انكلترا. وهكذا، وبينما كان (دونكان) ينتشر باسطوله في مياه (يارموث)[٢٣] تلقى أمراً بفرض الحصار على هولاندا، أو ارغام قواتها البحرية على الاشتباك في القتال. غير أن (دونكان) لم يتمكن بسبب العصيان من ارسال أكثر من سفينتين من سفنه إلى عرض البحر. وعلى كل حال، فقد تمكن بواسطة هاتين السفينتين من فرض الحصار على (تيكسيل)[٢٤] وذلك حتى يوم ٢١ حزيران ـ يونيو ـ. حيث طلبت حكومة المديرين إلى هولاندا، إرسال (٢٠) ألف رجل لغزو ايرلنده، في حين تقوم قوة أخرى من ستة آلاف رجل بالابحار مع الأسطول الذي سينطلق من (بريست)[٢٥] في فرنسا. غير أن شيئاً لم يحدث حتى يوم ٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ حيث توافرت المعلومات لدى (دونكان) بأن قوات هولاندية قد أبحرت بهدف الانزال في (كلايد)[٢٦] لجذب القوات البريطانية

---

(٢٣)يارموث: (YARMOUTH) مدينة انكليزية في إقليم نورفولك ولها خليج على بحر الشمال.

(٢٤)تيكسيل: (TEXEL) جزيرة هولاندية تقع إلى الشمال من هولاندا ومساحتها ١٨٤ كيلومتر مربع.

(٢٥)بريست: (BREST) مدينة فرنسية قديمة، مركز إقليم فينيستير FINISTERE. تتميز بطبيعتها الحصينة، وتشتهر بقلاعها، وبمينائها الواقع على المحيط الأطلسي، وبها قاعدة بحرية ضخمة.

(٢٦)كلايد: (CLYDE) نهر في ايقوسيا، يمدغلاسكوبالماء، ويصب في البحر الايرلندي، في مصب يحمل اسمه (مصب كلايد) وطول النهر ١٩٧ كيلومتراً.

الموجودة في ايرلنده، وفي يوم ١١ تشرين الأول - اكتوبر - وصلت (١٦) سفينة هولاندية إلى مياه (كامبردون) فأسرت البحرية البريطانية منها (٩) سفن. فما كان من حكومة المديرين إلا أن عملت بعد هذه الهزيمة مباشرة، على تعيين الجنرال (نابليون بونابرت) لقيادة الجيش المخصص لغزو انكلترا.

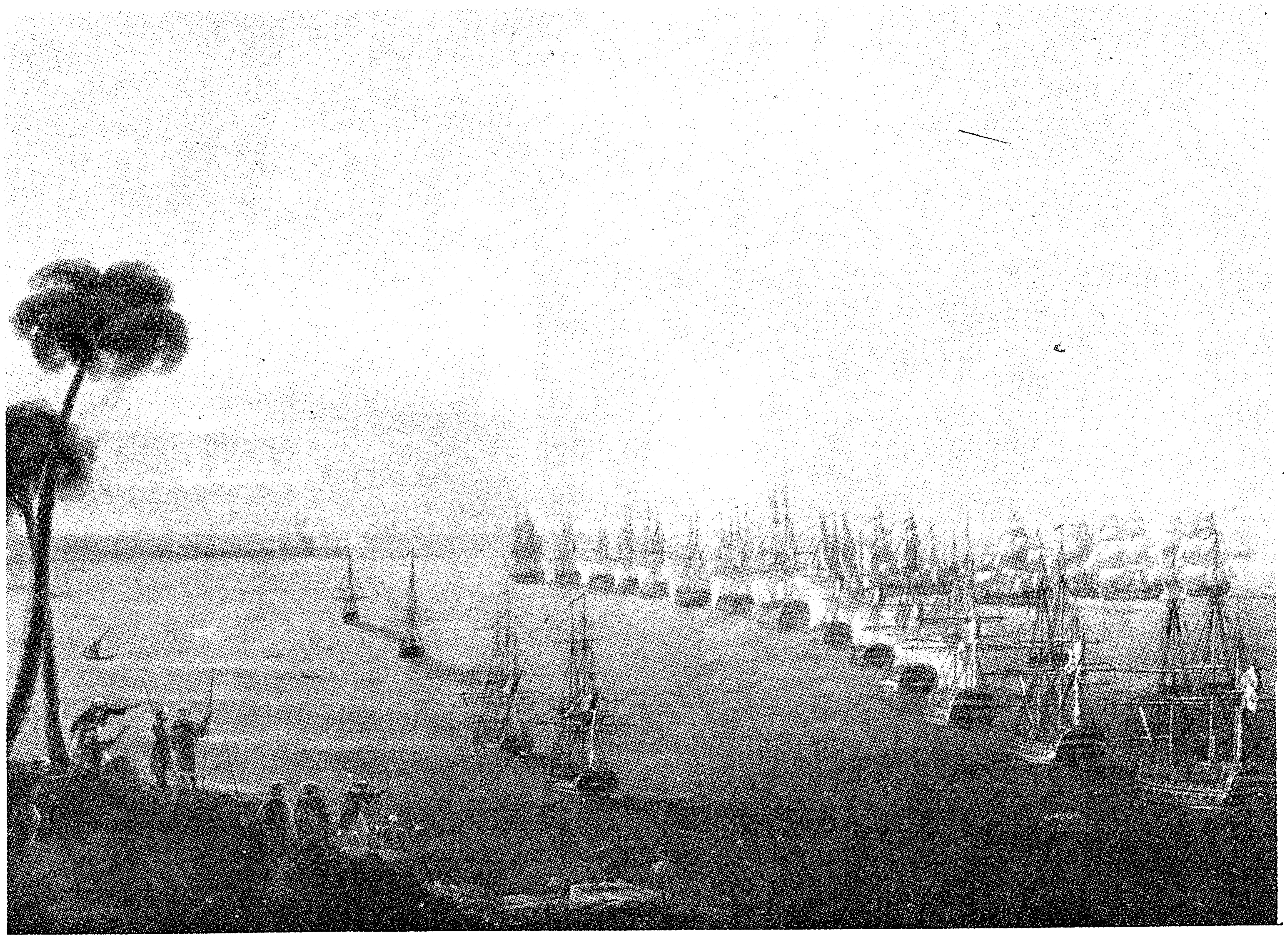
وصل (نابليون) إلى مدينة (دنكرك)[٢٧] يوم ١١ شباط - فبراير- ١٧٩٨، وشرع على الفوربإجراء جولةتفقديةشملت كل المنشآت البحرية القائمة على الساحل. وأصدر أوامره القوريةبتشكيل اسيطيل من الزوارق ذات الجوف المسطح لنقل الجند. ثم أرسل تقريره إلى حكومةالمدير في يوم ٢٣ شباط (فبراير) وهوالتقرير الشهيروالذي تضمن ما يلي: «**إننا لن نتمكن من الحصول على السيادة البحرية، مهما بذلنا من الجهد، قبل مضي سنوات عديدة. وان القيام بانزال في انكلترا، قبل الحصول على السيادة البحرية، ما هو إلا ضرب من الحماقة، إذ ستصطدم المهمة بأشد الصعوبات التي يمكن تصورها**»[*]. ولما كان نابليون على استعداد دائم لطرح الحلول التبادلية، فقد اقترح على حكومة المديرين، وإلى أن تتم الاستعدادات لغزو انكلترا بصورة مناسبة، بأن يتم توجيه ضربة إلى تجارة انكلترا مع الغرب، وذلك باحتلال (مالطا) واحتلال (مصر) والقيام بغزو (الهند). وقبلت حكومة المديرين هذا الاقتراح. وكلفت (نابليون) بتنفيذه. فشرع على الفور بتنظيم أمور الحملة التي حشد لها (١٣) سفينة حربية و(٣٠٠)سفينة نقل جنود، وأكثر من (٣٥) ألف جندي مقاتل و(١٥) ألف بحار وعالم وفني من المدنيين. وقد أسند القيادة البحرية للأميرال (برويز)[٢٨]

---

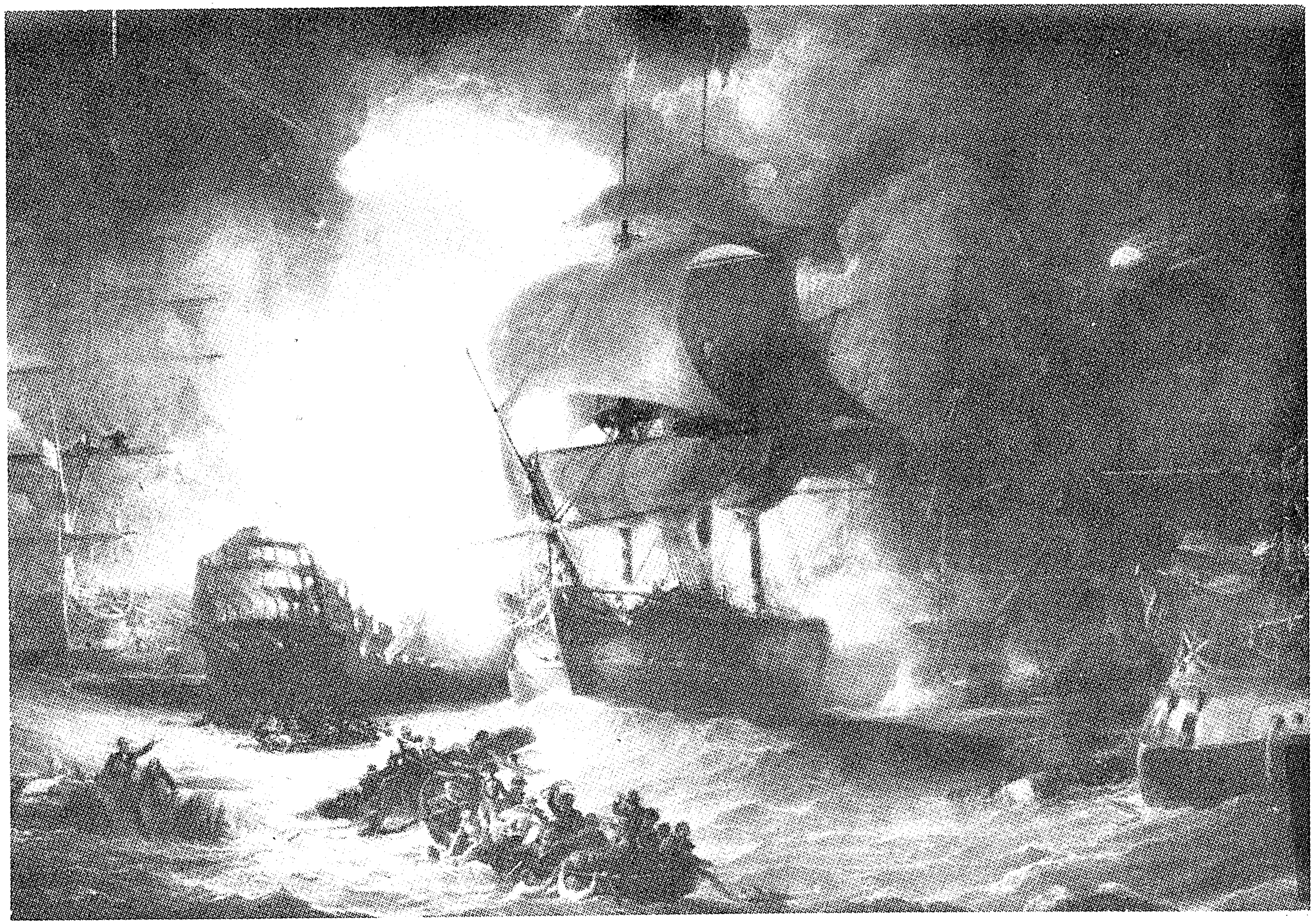
(٢٧)دنكرك: (DUNKIRK) أو (DUNKERQUE - بالفرنسية) مدينة رئيسية من مدن الشمال الافرنسي، لها خليج على بحر الشمال (وهي إلى الشمال من باريس بمسافة ٢٧٤ كيلومتراً).

(*) THE DECISIVE BATTLES (FULLER) P.P. 60- 61.

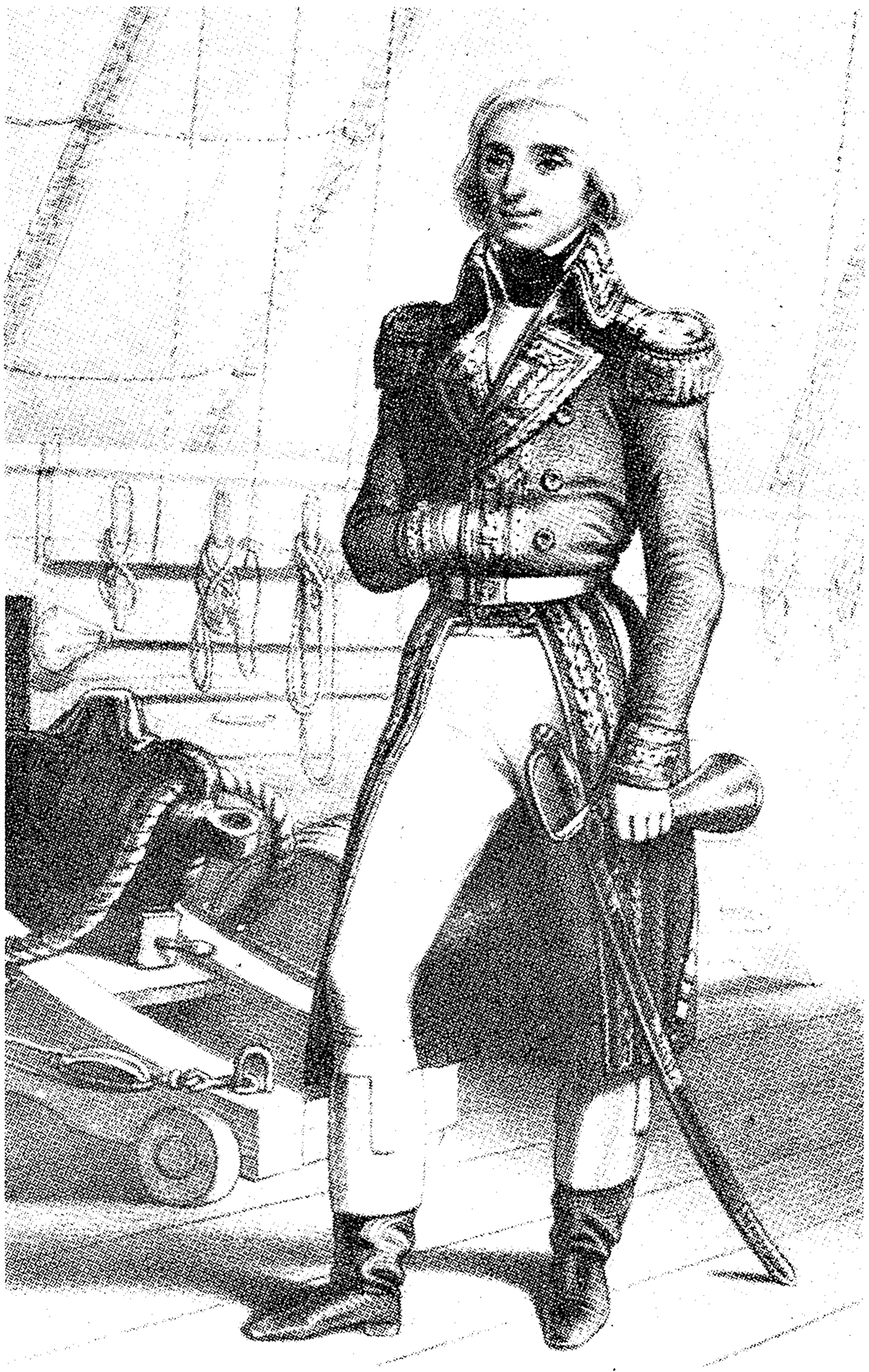
(٢٨ برويز: (BRUEYS. FRANÇOIS- PAULI) أميرال في البحرية الافرنسية، من مواليد أوزيس (UZES). (١٧٥٣ - ١٧٩٨) انتصر عليه نيلسون في معركة أبي قير، وقتل في المعركة.



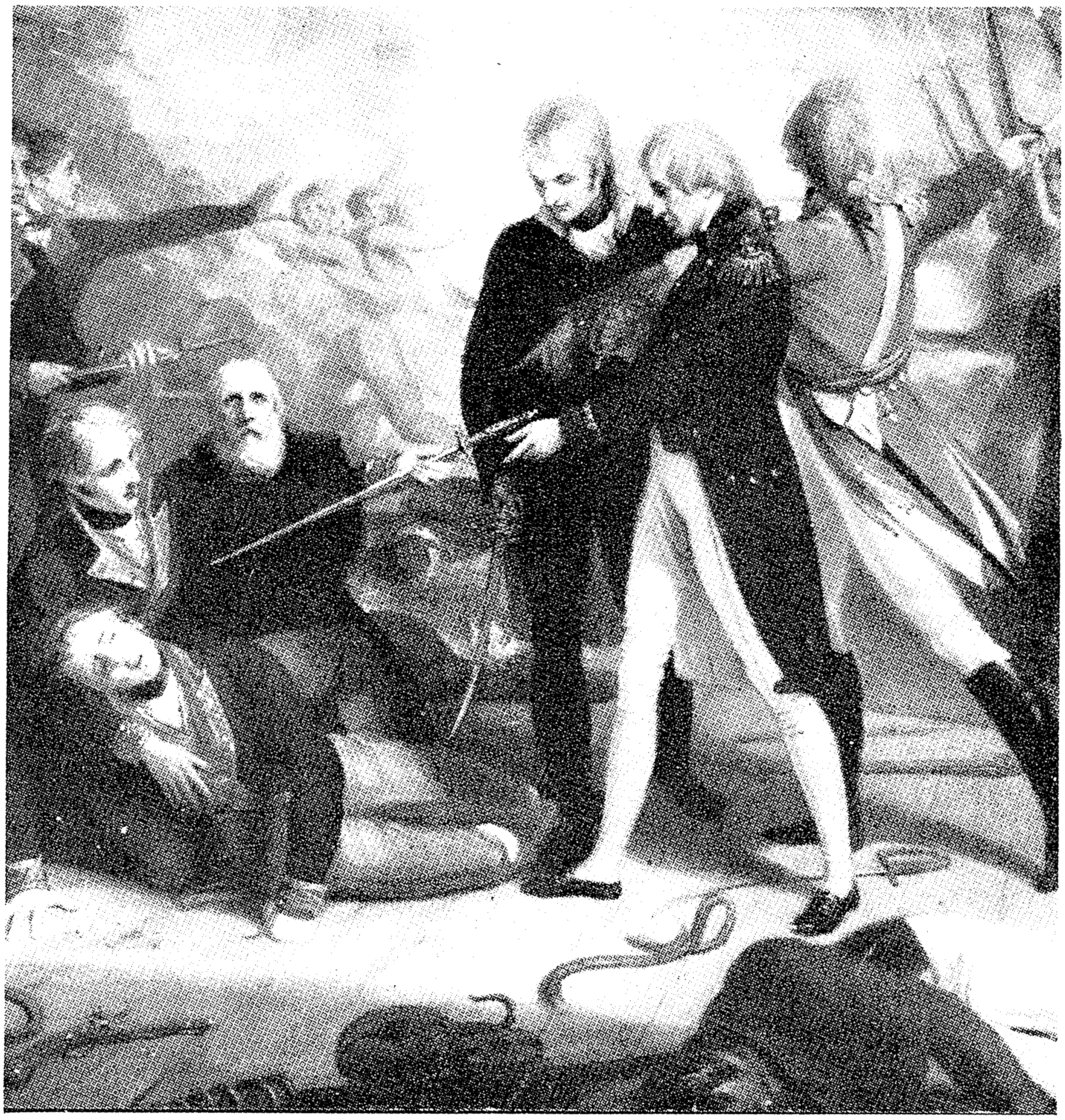
الأسطول البريطاني يستدير للهجوم على الأسطول الافرنسي الذي كان يقوده برويز في معركة النيل.



السفينة الافرنسية (أوريانت) وهي تنفجر



قائد الأسطول الافرنسي الأميرال برويز في معركة النيل (أبي قير) في ١ ـ آب ـ أغسطس ـ ١٧٩٨.



القائد نيلسون ـ على متن سفينة قيادته القبطان ذات ـ ٧٤ ـ مدفعاً ـ وقد أسرت السفن الأفرنسية سان نيقولا (٨٠ مدفعاً) وسان جوزيه (١١٢ مدفعاً).

يرافقه الأميرال (غانتوم)[٢٩] و(فيللنوف)[٣٠] و(دوكريه)[٣١]. وقد اندفع (بونابرت) للعمل بكل حماسته، تغذيه أحلام منافسة (الاسكندر الكبير - المقدوني) وما هي إلا أشهر قليلة حتى انتهت الاستعدادات، وأقلع الأسطول الفرنسي من ميناء طولون يوم **١٩** أيار - مايو - **١٧٩٨**، فوصل إلى (مالطا) واحتلها يوم **١٢** حزيران - يونيو - ومضى بعد وقفة قصيرة إلى هدفه التالي، فنزل بقواته في الاسكندرية يوم **٢** تموز - يوليو - وخاض في يوم **٢١** تموز - يوليو - (معركة الاهرامات) ضد المماليك، وهي المعركة التي دمر أنف (أبو الهول) بقنبلة من قنابل مدفعيته، وانتصر نابليون على المماليك، وظن أنه بات قادراً على المضي في مشاريعه، فانطلق لغزو سوريا، وتوقف أمام أسوار عكا، فكانت العقبة الأولى التي صدمت مشاريعه، ثم جاءت الصدمة الثانية، عندما علم بتدمير أسطوله في (معركة النيل).

ج - معركة النيل (أو معركة أبي قير)[*]

وقعت معركة النيل في اليوم الأول من آب - أغسطس - **١٧٩٨**، في خليج أبي قير القريب من الاسكندرية. غير أن قصة هذه المعركة لم تبدأ بيوم وقوعها، وإنما بدأت قبل ذلك. فمنذ الأيام الأولى التي بدأت فيها الاستعدادات لحملة نابليون، كانت لدى الحكومة البريطانية معلومات كافية عن أهداف الحملة من الاستيلاء على مصر، وتهديد طريق الهند، ومحاولة

---

(٢٩) غانتوم: (GANTEAUME - HONORE) أميرال فرنسي، من مواليد سيوتات (CIOTAT) القريبة من - مارسيليا - (١٧٥٥ - ١٨١٨) تولى قيادة القوات البحرية أثناء حملة نابليون على مصر. وفي سنة (١٨٠٥) عينه نابليون قائداً للجيش البحري في المحيط الأطلسي. ثم عينه في سنة (١٨٠٨) قائدا للجيش البحري في المتوسط.

(٣٠) فيللنوف: (VILLENEUVE- PIERRE DE,) أميرال فرنسي، من مواليد فالنسول: (VALENSOLES) في الألب السفلى (١٧٦٣ - ١٨٠٦) هزمه نيلسون في معركة (الطرف الأغر) فانتحر.

(٣١) دوكريه: (DENIS DUC, DECRES) أميرال فرنسي، من مواليد شاتوفيلان: (CHATEAUVILLAIN) (١٧٦٢ - ١٨٢٠) عمل وزيراً للبحرية أثناء حكم نابليون بونابرت..

(*) المرجع: الموسوعة البريطانية (طبعة سنة ١٩٦٥) ١٦/٥٢٣ - ٥٢٤.

كسر طوق الحصار البحري الذي حاولت انكلترا فرضه على فرنسا الثورة. ولهذا فقد تابعت الحكومة البريطانية، باهتمام كبير، الاستعدادات التي كانت تقوم بها فرنسا لارسال الحملة إلى مصر، وذلك على الرغم من كل تدابير الحيطة والأمن التي اتخذتها فرنسا للمحافظة على (أسرار الحملة). وقد وجهت الحكومة البريطانية أوامرها إلى القائد الأعلى للأسطول البريطاني المتمركز في قاعدة لشبونة - البرتغال - والذي حمل اسم (اسطول سانت فانس). وكلفته بتشكيل قوة بحرية مستقلة - منفصلة - تحت قيادة (مساعد الأميرال السير هوراتيو نيلسون) واجبها التوجه إلى ميناء (طولون) ومتابعة تحرك القوات البحرية الافرنسية.

كان القائد البحري (نيلسون) في هذه الفترة يتمركز في قاعدة (جبل طارق)[٣٢] وينطلق منها في جولات استطلاعية لمراقبة السواحل الافرنسية، وتصادف له أن اصطدم بعاصفة بحرية عاتية في يوم (٢٠ - أيار - مايو - ١٧٩٨) فتمزقت حراقاته - فرقاطاته - وأصيبت سفينة قيادته ذاتها (المنتقم - فانغارد) بأضرار كبيرة، الأمر الذي أرغمه على العودة إلى قاعدة جبل طارق، لاصلاح سفنه، وإعادة تجميع حراقاته. وفي هذه الأثناء، كانت قوة (سانت فانس) قد دعمته بسبع سفن حربية، وصلته يوم (٧ - حزيران - يونيو) فارتفع بذلك عدد السفن الحربية الموضوعة تحت قيادة (نيلسون) إلى (١٤) سفينة حربية. مدعمة بقوة لواء من الجنود - المشاة - (لعمليات الانزال إذا ما تطلب الأمر).

استطاعت البحرية الافرنسية الافادة من كل الظروف، وتمكنت من خداع البريطانيين وتضليلهم، فوصل الأسطول الفرنسي إلى (مالطا)

---

(٣٢) جبل طارق: (GIBRALTAR) مدينة حصينة تقع على رأس المضيق المعروف باسم (مضيق جبل طارق) نسبة إلى المجاهد المسلم (طارق بن زياد) الذي فتح شبه جزيرة الأندلس. وقد استولى البريطانيون على قلعة جبل طارق في سنة ١٧٠٤، وجعلوا منها قاعدة بحرية لهم، نظراً لأهميتها في السيطرة على مضيق جبل طارق (أو المجاز كما كان يسميه العرب المسلمون) وهو الذي يصل المغرب باسبانيا، وطوله (١٥) كيلومتراً فقط، أما عمق المياه في المضيق فلا يزيد على (٤٥٠) متراً.

بأمان، وقام باحتلال الجزيرة، ونظم حامية قوية للدفاع عن (فاليتا)[٣٣]. ثم مضى بعد توقف قصير نحو هدفه النهائي، فوصل الاسكندرية دونما أي عائق.

وصل (نيلسون) ومعه اسطوله إلى ميناء (طولون) فوجده خالياً خاوياً، ولا أثر فيه للأسطول الفرنسي، فأدرك أن حملة نابليون قد أبحرت إلى جهة مجهولة. ولما كان يفتقر لحراقات الاستطلاع الخفيفة، فقد انفصل عن اسطوله، وتوجه بسفينته نحو المياه المصرية، وعندما وصل إلى الاسكندرية وجد أن خليجها لا يضم ولا سفينة فرنسية واحدة، فعاد فوراً إلى (صقلية) حيث التقى باسطوله، وانطلق في البحث عن طريدته، وهو يشعر بمرارة خيبة الأمل لنجاح خصومه في خداعه، غير أن اليأس لم يداخله في توافر فرصة أفضل للالتقاء بهم، وقرر العودة مرة ثانية إلى مصر، وقاد اسطوله متوجهاً به نحو الشرق، حتى إذا ما وصل إلى الاسكندرية في اليوم الأول من آب ـ أغسطس ـ واقترب من مياهها الاقليمية بوغت مباغتة كاملة، إذ شاهد على الفور (١٣) سفينة حربية ضخمة ومعها (٣) حراقات ـ فرقاطات ـ وكلها راسية في ميناء (أبي قير)، وهي تلتمع تحت أشعة الشمس الحارقة. ولم يكن هناك مجال للشك، إنها يقيناً سفن الأسطول الافرنسي الذي يتولى قيادتها خصمه (الأميرال برويز).

كان الوقت متأخراً، إذ لم يبق لغروب الشمس إلا ساعات قليلة. وكان (برويز) قد اتخذ تدابير الحيطة اللازمة، فسحب سفنه إلى ما فوق رمال الساحل، ووضعها على نسق في مواجهة البحر حتى يتمكن الرجال من استخدام أسلحتهم بسرعة وكفاءة، كما أقام بطارية مدفعية فوق المرتفع في (أبي قير) وهكذا فقد أصبح يحتل موقعاً دفاعياً حصيناً. وأراد (نيلسون) تحقيق المباغتة، فلا ريب أن عدداً كبيراً من البحارة قد حصل على إجازة لزيارة الأماكن الأثرية في مصر والاستمتاع بمباهج حياة الشرق في مدن

---

(٣٣) فاليتا: (LA' VALETTE) عاصمة جزيرة مالطا، وهي مدينة محصنة، تقع على البحر ولها خليج ـ إلى الشرق من الجزيرة.

الشمال المصري. وهناك أعداد أخرى تستمتع يقيناً بدفء النهار، فتمارس السباحة أو الرياضة فوق الرمال الدافئة، ويجب ألا تترك لها فرصة اللحاق بسفنها والعمل عليها. وهكذا اتخذ (نيلسون) قراره الحاسم بالهجوم فوراً على السفن الافرنسية قبل أن تتاح لها فرصة التنظيم للمعركة.

وصدرت الأوامر بالاستعداد للهجوم، واجتاحت سفن الأسطول الانكليزي نوبة من الهياج الانفعالي، على نحو ما يحدث عادة قبل الانطلاق للمعركة. غير أن الأمور على ظهر السفن جرت بدقة مذهلة ونظام رائع. وترك (نيلسون) لمرؤوسيه حرية العمل الكاملة للقيام بإدارة معركة سفنهم وفقاً لمبادأتهم الشخصية، وذلك بهدف تحقيق النجاح الكامل. فتوجه القبطان (توماس فولي ـ قائد سفينة جولييت)[٣٤] نحو الأسطول الافرنسي، محاولاً سبر عمق المياه واكتشاف ممر يسمح له بالالتفاف من حول خط السفن الافرنسية. والوصول إلى مجنبات تلك السفن ومؤخراتها. ونجح في ذلك، فتبعه (صاموئيل هود ـ قائد سفينة زيلوس)[٣٥] ولحق بهما (دافيد غولد ـ قائد سفينة اوداسيوس)[٣٦] ثم السير (جيمس سوماريز ـ نائب نيلسون ـ والذي كان يتولى قيادة سفينة الأوريون)[٣٧].

أخذ الأميرال (نيلسون) على عاتقه مهاجمة السفن الافرنسية ـ جبهياً ـ من البحر، وانطلق بسفينته (فانغارد) ليكون أول من يبدأ بالهجوم، وتوجهت كل سفينة بريطانية لمهاجمة السفينة الافرنسية المقابلة لها ـ باستثناء السفينة كولودون التي أمسكت بها رمال الشاطىء فمنعتها عن الحركة، غير أن قائد هذه السفينة، توماس تروبريدج، استطاع توجيه بقية السفن نحو ممر مائي مأمون، فتوجهت عبره (السنينة الاسكندر) و(السفينة سويفتر) فكانتا

---

(٣٤)توماس فولي قائد جولييت: (CAPTAIN THOMAS FOLEY -OF GOLIATH)

(٣٥)صاموئيل هود قائد زيلوس: (CAPTAIN SAMUEL HOOD-OF ZEALOUS)

(٣٦)دافيد غولد ـ قائد اوداسيوس: (CAPTAIN DAVIDGE GOULD- OF AUDACIOUS)

(٣٧)جيمس سوماريز قائد الأوريون: (SIR JAMES SAUMAREZ- OF THE ORION)

آخر السفن التي دخلت المعركة بعد هبوط الظلام.

دارت رحى معركة قاسية، بضراوة وحشية، طوال الساعات الأولى من الليل. لقد بوغت الافرنسيون بظهور الأسطول البريطاني، غير أن المباغتة لم تكن كاملة، فقد توافرت فترة قصيرة من الوقت لتنظيم القتال، واستخدام الأسلحة بما هو متوافر من عناصر المناوبة، وبما أمكن جمعه من البحارة. ووصلت المعركة ذروة قسوتها في الساعة (٢٢٠٠) عندما انفجرت سفينة (الأميرال بريز - واسمها الأوريان) وهي المسلحة بمائة وعشرين مدفعاً، والتي كانت تعتبر من أضخم السفن الحربية، وقتل من جراء الانفجار معظم بحارتها، وفي مقدمتهم قائد الأسوطل الافرنسي - برويز -. وفي الوقت ذاته أصيب الأميرال الانكليزي (نلسون) بجرح في رأسه، غير أن ذلك لم يمنعه من متابعة القتال وإدارة المعركة. لم تكن هناك حاجة للانارة، فقد تحول الساحل إلى مشاعل ملتهبة، وارتسمت الأهداف واضحة على ميدان الاشتباك، غير أن حدة القتال لم تلبث أن أخذت في التراجع والانحسار، وأخذت فوهات المدافع في التزام الصمت تباعاً. حتى توقفت المعركة تماماً مع انحسار ظلام الليل.

أشرقت شمس اليوم الثاني من شهر آب - أغسطس - وليس من سفن الأسطول الافرنسي إلا محطومات متناثرة، حملت أمواج البحر قسماً منها وأخذت تضرب بعضه ببعض، فيما كانت بقية سحب الدخان القاتمة ترتفع رويداً رويداً لتكشف عن حجم المأساة الهائلة التي نزلت بالافرنسيين، والذين لم يبق لهم من أسطولهم إلا السفينتين (لوجينيرو) و(وليم تل) التي كانت تعمل بقيادة الأميرال (فيللنوف). ولقد حاولت السفينتان المذكورتان خوض معركة خاصة بهما خارج الميناء، ومعهما حراقتين. غير أنهما اضطرتا للانسحاب. ولما لم تكن حالة الأسطول البريطاني تسمح له باعتراض مرور السفينتين الافرنسيتين، الباقيتين، أو مطاردتهما، فقد أفسحت لهما المجال للهرب، وأخذ (نلسون) في إعادة تجميع سفن اسطوله، والانسحاب بها بعيداً عن ميدان المعركة، بعد أن خسر السفينة (كولودون) وهي السفينة

البريطانية الوحيدة التي جنحت على الرمال منذ بداية المعركة.

خسر الأسطول البريطاني في المعركة (٢١٨) قتيلاً و(٦٧٧) جريحاً، أما خسائر الأسطول الافرنسي فقد زادت بأكثر من عشرة أضعاف على خسارة البريطانيين. وقد علق الأميرال (نلسون) على نتيجة هذه المعركة بقوله: «**ليست كلمة النصر هي بالكلمة الكافية لوصف نتيجة هذه المعركة**».

خرج (الأميرال نلسون) من (معركة النيل) وقد احتل مكانته في مرتبة كبار قادة الحرب العالميين، وأصبح بالنسبة لبلاده ـ انكلترا ـ بطلاً قومياً يتردد اسمه على كل لسان. وقد انصرف نلسون بعد المعركة لتعزيز مكانة بريطانيا في البحر الأبيض المتوسط، فاتخذ من (نابولي) قاعدة لعملياته. وأمضى الفترة حتى عودته إلى انكلترا في صيف (سنة ١٨٠٠) متنقلاً باسطوله ما بين (نابولي) و(صقليا). وأفاد من هذه الفترة فائدة كبرى، حيث عمل على دراسة الوضع العام في منطقة البحر الأبيض المتوسط، والاطلاع على شؤون الدول الواقعة على سواحله.

أحرز الأسطول البريطاني في (معركة النيل) انتصاراً حاسماً، غير أن أهمية هذا النصر تجاوزت حدود ما حدث فوق مسرح العمليات، فقد أدى تدمير الأسطول الافرنسي إلى عزل نابليون وجيشه في مصر عزلاً تاماً، الأمر الذي أرغم (نابليون) على التعجل بالعودة إلى بلاده والتخلي عن أحلامه وطموحاته في إقامة امبراطورية شرقية. وفي مجال الصراع البحري، كان من أبرز نتائج المعركة انها ضمنت لبريطانيا السيادة البحرية على حوض البحر الأبيض المتوسط. وبات بالمستطاع إخراج الافرنسيين من (مالطا)، إذ حل البريطانيون محلهم في السيطرة عليها، الأمر الذي دعم من هيبة (البحرية البريطانية) لدى الدول الواقعة على هذا البحر.

د ـ متحولات الصراع.

أدى انتصار (نلسون) في معركة النيل إلى دعم الروح المعنوية في

أوروبا، واستثمرت الحكومة البريطانية هذا النصر، فعملت على توظيف نتائجه لتحقيق أهداف سياسية، وشجعت الدول الأوروبية على ما أسمته (التوسع الافرنسي) فأقيم (التحالف الثاني) الذي ضم انكلترا ونابولي والنمسا وروسيا وتركيا. وبينما كان (نابليون) لا يزال متعثراً في صراعاته في بلاد الشام ـ فلسطين ـ قامت دول التحالف بالانتقال من مواقع الدفاع إلى مواقع الهجوم. فقام (سوفوروف)[٣٨] بإلحاق الهزيمة بالقوات الافرنسية ـ الايطالية (الجمهورية). وقام جيش روسي ـ بريطاني مشترك بتطويق هولاندا، في حين قام جيش روسي ـ نمساوي مشترك أيضاً بغزو سويسرا واجتياحها. وتدهور الموقف الافرنسي إلى درجة خطيرة مما دفع أعضاء حكومة المديرين لاستدعاء (بونابرت) والاستنجاد به، فما كان منه إلا أن سلم القيادة للجنرال (كليبر)[٣٩] وغادر الاسكندرية في ليل **٢٢ ـ ٢٣** آب ـ أغسطس ـ بصورة سرية، وأمكن له خداع البحرية البريطانية، ووصل إلى ميناء (فريجوس) في فرنسا يوم **٩** تشرين الثاني ـ اكتوبر ـ. وفي هذا الوقت ذاته كان (سوفوروف) ينسحب من سويسرا، في حين كانت القوات الانكليزية ـ الروسية تغادر هولاندا.

ما من حاجة بعد ذلك لاستعراض المراحل التي تجاوزها (نابليون بونابرت) إلى أن أصبح قنصلاً أولاً. الأمر الذي مكنه من امتلاك السلطة لمجابهة قوى (التحالف الثاني). غير أنه بالرغم من ذلك، فقد تحرك ـ سياسياً ـ بكفاءة عالية، وكان هدفه هو إيجاد الذرائع أمام الشعب الافرنسي

---

(٣٨) سوفوروف: (SOUVOROV- ALEXANDRE) جنرال روسي، من مواليد موسكو (١٧٢٩ ـ ١٨٠٠) قضى على الثورة البولونية سنة ١٧٩٤، خاض الصراع ضد قوات الثورة الافرنسية في إيطاليا. انتصر عليه القائد الفرنسي (مسينا: MESSENA) في زوريخ، ويعتبره الاتحاد السوفييتي من كبار قادة الحرب.

(٣٩) كليبر: (KLEBER, JEAN-BAPTISTE) جنرال فرنسي، من مواليد ستراسبورغ. (١٧٥٣ ـ ١٨٠٠) تطوع في الجيش سنة ١٧٩٢، واشترك في حصار مايانس، وتولى قيادة القوات في (الفانديه). وتولى بعد ذكلك قيادة جيش الراين وأسند إليه نابليون بونابرت قيادة جيش مصر عند عودته إلى فرنسا. وقام أحد طلاب الأزهر (سليمان الحلبي) بقتله بطعنة خنجر.

من أجل خوض حرب يعتقد الشعب بعدالة قضيتها، ولهذا وجه رسالة إلى الملك (جورج الثالث)[٤٠] وإلى امبراطور النمسا، لإنهاء الحرب. ولما لم يتحقق له ذلك، غادر باريس في يوم ٦ - أيار - مايو - ١٨٠٠ متوجهاً إلى (جنوى) عبر مضائق (سانت برنارد)[٤١] في جبال الألب، حيث وقع على مؤخرة الجيش النمساوي في (بييمونت) يوم ١٤ حزيران - يونيو - وأحرز عليهم انتصاره الحاسم في معركة (مارنغو). واتبع ذلك بانتصار أحرزه (مورو) في (هوهنليدن) يوم ٢ كانون الأول - ديسمبر - وبذلك انهار التحالف الثاني. وقبلت النمسا شروط (سلم لونفيل)[٤٢] في يوم ٩ شباط - فبراير - ١٨٠١.

ما أن نجح نابليون في تحييد (النمسا) ووضعها خارج القتال، حتى عاد لمشاريعه الخاصة بتوجيه ضربة حاسمة ضد انكلترا. وأمكن له اقناع روسيا وبروسيا والدانمارك والسويد بالعودة إلى الخط السياسي التي كانت قد وضعته القيصرة (كاترين الثاني)[٤٣] في سنة ١٧٨٠. وتكوين (حلف حيادي مسلح) ضد انكلترا، وتم التوقيع على معاهدة هذا الحلف في ١٢ كانون الأول - ديسمبر - ١٨٠٠ م. غير أنه لم تمض أكثر من فترة قصيرة حتى

---

(٤٠) جورج الثالث: (GEORGES III) من مواليد لندن (١٧٣٣ - ١٨٢٠) أصبح ملكاً لانكلترا اعتباراً من سنة ١٧٦٠، وفي عهد حكمه قامت الثورة الأمريكية وخسرت انكلترا ممتلكاتها في أمريكا. وقد خاض الصراع بعناد ضد الثورة الفرنسية.

(٤١) سانت برنارد - الكبير - (ST. BERNARD, GRAND) عنق أو مضيق في جبال الألب ما بين وادي (سويسرا) ووادي (إيطاليا) يقع على ارتفاع (٢٤٧٢ م) وقد أقام القديس (سانت برنارد) كنيسة في قمة الجبل سنة (٩٨٢ م) وهناك كلاب خاصة تطلقها الكنيسة لانقاذ المسافرين أو الضائعين في الثلوج.

(٤٢) لونفيل: (LUNEVILLE) المدينة الرئيسية في إقليم (المورت - والموزل) تقع على نهر مورث (MEURTH) وقعت فيها المعاهدة الفرنسية - النمساوية سنة ١٨٠١، والتي أكدت بنود المعاهدة السابقة (كامبو - فورميو) (CAMPO- FORMIO) والتي تنازلت النمسا بموجبها لفرنسا عن (بلجيكا) و(جزر الايونيين) سنة ١٧٩٧.

(٤٣) كاترين الثانية: (CATHERINE II, LA GRANDE) قيصرة روسيا، من مواليد ستيتن، STETTIN الألمانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) تزوجها بطرس الثالث، وقد حكمت وحدها بعد وفاة زوجها سنة ١٧٦٢ واستمرت في الحكم حتى نهاية حياتها. حاربت المسلمين العثمانيين بعناد وضراوة وغنمت بعض المناطق الاسلامية التي وسعت بها حدود مملكتها. كانت منحرفة السلوك، واشتهرت بقسوتها.

انهار هذا التحالف بسبب اغتيال قيصر روسيا (بولس الأول)[٤٤] وبسبب ذلك الانتصار الحاسم الذي أحرزه (نيلسون) من جديد على الأسطول الدانماركي في كوبنهاغن يوم ٢ نيسان - ابريل - ١٨٠١ م.

المهم في الأمر، هو الإشارة إلى ما قام به (بونابرت) عندما نجح في إبرام الحلف السابق، إذ اندفع بحماسة للامساك بهذه الفرصة من أجل حل مشكلة انكلترا، وإخضاعها. وفي شهر شباط - فبراير - وجه رسالة إلى (تاليران) أوضح فيها الخطوط العامة لبرنامج ضخم يتضمن توجيه حملة بحرية ضخمة ضد انكلترا، تشترك فيها أساطيل فرنسا وأسبانيا وهولاندا، وتدعمها روسيا والدانمارك. وكانت الفكرة الأساسية لهذاالبرنامج تعتمد على خداع الكتلة الرئيسية من الأسطول البريطاني لإبقائها بعيدة في مصر؛ إذ ان البحرية الافرنسية بقيت ضعيفة جداً إلى درجة كان من المحال عليها منافسة نظيرتها الانكليزية في مجال السيادة البحرية. ونتيجة لذلك، فقد تمت العودة لفكرة إرسال قوات لغزو انكلترا - عبر القنال الانكليزي - المانش - بشرط أن يكون الأسطول البريطاني بعيداً عن بلاده. وتنفيذاً لذلك، فقد تم تعيين (الأميرال دوكريه) وزيراً للبحرية. وتم وضع المخططات لجيش الغزو، بحيث يبلغ عدد أفراده (١١٤,٥٥٤) ضابطاً وجندياً، تقوم بنقلهم قوة تزيد على ألفي زورق - من زوارق الانزال.

اقترن انهيار حلف (الحياد المسلح) بتشكيل حكومة بريطانية متساهلة (برئاسة أدينغتون) وذلك في شهر تشرين الأول - اكتوبر -. وبذأت (مفاوضات سلمية) أدت إلى عقد معاهدة (أميان)[٤٥] في ٢٧ آذار - مارس -

---

(٤٤) بولس الأول (PAUL I) (قيصر روسيا وابن بطرس الثالث (PIERRE III) وكاترين الثانية من مواليد (سانت بيترسبورغ) ١٧٥٤ - ١٨٠١ م. وحكم من سنة ١٧٩٦ إلى سنة ١٨٠١ وقد قتل غيلة من قبل متآمرين قادهم ووجههم (الكونت PAHLEN - باهلن) الذي كان حاكماً للعاصمة ومتعاوناً مع البريطانيين.

(٤٥) أميان: (AMIENS) العاصمة القديمة لبيكاردي (PICARDIE) والمدينة الرئيسية لإقليم السوم حالياً. وهي تبعد مسافة (١٣٠ كيلومتراً) عن باريس. وقد استولى عليها الاسبانيون، ثم استردها منهم الملك هنري الرابع سنة ١٥٩٧ م. وبها إحدى كنائس القوط القديمة والضخمة.

١٨٠٢ . وهي المعاهدة السلمية بين فرنا واسبانيا وباتافيا (جمهورية هولاندا) من جهة وبين بريطانيا وايرلنده من جهة ثانية. وتضمنت البنود الرئيسية لهذه المعاهدة أن تحتفظ بريطانيا (بسيلان) و(ترينيداد)(٤٦) وأن تعيد لفرنسا بالمقابل كافة المستعمرات الأخرى التي انتزعتها من فرنسا وحلفائها. وأن تقوم القوات البريطانية بالجلاء عن (مالطا). وأن تقوم فرنسا أيضاً بسحب قواتها من (تارانتو) و(دول الكنيسة).

كان من نتائج (صلح أميان) إطلاق يد (نابليون) ليتحكم بمصير أوروبا، وقد استثمر نابليون هذا الموقف ليختبر مدى ولاء الشعب الفرنسي له، فأجرى استفتاء على السؤال التالي:

هل يجب أن يصبح نابليون بونابرت قنصلاً مدى الحياة؟

وجاءت النتيجة (بنعم) من قبل (٣,٥٦٨.٨٨٥) مقابل (لا) من قبل (٨٣٧٤) وأصبح شخص (نابليون) اعتباراً من هذا اليوم (١٠ ـ أيار ـ مايو ـ ١٨٠٢) رجل فرنسا ورجل التاريخ.

لم يكن (صلح أميان) أكثر من خدعة متبادلة، ولهذا فقد عاش السلم في أوروبا مقلقلاً، مضطرباً، ولم يحاول أحد النظر إلى بنود الصلح بما تستحقه من الاهتمام والجدية، وقد برزت بواكير الانقسام مبكرة، وكان من أهمها سياسة نابليون لفرض حمايته على أوروبا، وهي السياسة التي ألحقت الضرر بتجارة انكلترا. وبالإضافة إلى ذلك، فقد رفضت انكلترا الانسحاب من (مالطا). كما امتنع نابليون عن سحب حامياته من (هولاندا). وهكذا لم تمض إلا سنة واحدة على معاهدة (صلح أميان) حتى وصلت الأمور إلى نهاياتها. وفي يوم ٢ أيار ـ مايو ـ ١٨٠٣ قام سفير بريطانيا في باريس (اللورد ويتوورث) بتسليم جواز سفره، وعبر مضيق دوفر في يوم ١٧ ـ أيار ـ مايو ـ وأعلنت انكلترا الحرب على فرنسا في اليوم التالي مباشرة.

---

(٤٦) ترينيداد: (TRINIDAD) مدينة في جزيرة كوبا. على الساحل الجنوبي. وتحمل الجزيرة ذاتها اسمر ترينيداد ـ او (TRINITE) كما كان **يسميها الافرنسيون**. وهي أكبر جزر الانتيل ANTILLES الصغرى ـ الانكليزية ـ وتبلغ مساحتها (٤٨٢٢ كيلومتراً مربعاً).

بقيت البحرية الافرنسية بعيدة كل البعد عن استعادة قوتها التي فقدتها بسبب الثورة الافرنسية. فكانت تضم (٢٣) سفينة حربية و(٢٥) حراقة فرقاطة - و(١٠٧) زوارق إلخ. . . هذا بالإضافة إلى (١٦٧) زورقاً صغيراً تخص اسيطيل الغزو الذي بدىء بتشكيله منذ سنة (١٨٠٠). وكانت هناك (٤٥) سفينة حربية تحت الصنع. وكان تحت تصرف فرنسا اسطول (باتافيا) المكون من (١٥) سفينة حربية، غير أن خمسة فقط منها كانت صالحة للخدمة.

ومقابل ذلك، كان لدى بريطانيا اسطولين يقودهما قادة أكفاء، من أمثال نيلسون، احرزوا لبلادهم النصر تلو النصر. وكانت البحرية البريطانية تضم في مطلع كانون الثاني - يناير - ١٨٠٣ م قوة من (٤٣) سفينة حربية، تدعمها (٨٦) سفينة وحراقة (مسلحة بخمسين مدفعاً كل واحدة منها). وكان إلى الخلف من هذه القوة احتياطي يتكون من (٧٧) سفينة حربية و(٤٩) سفينة وحراقة (مسلحة كل واحدة منها بخمسين مدفعاً). وعندما أعلنت بريطانيا الحرب على فرنسا أصدر القائد الأعلى للقوات البحرية البريطانية أوامره بحصار الأسطول الافرنسي وتطويق الموانىء البحرية الافرنسية. فتم تكليف (نيلسون) لقيادة اسطول البحر الأبيض المتوسط. وتم تكليف (اللورد كيث)[٤٧] بمراقبة مضائق (دوفر) وبحر الشمال. كما تم تكليف (كوروليس) بحصار قاعدة (بريست) وتطويقها.

أمام هذا الفارق الكبير في القدرة البحرية ما بين بريطانيا وفرنسا، وأمام الموقف الذي تعرض له الأسطول الافرنسي وهو في الحصار، لم يبق لنابليون من أمل إلا الاعتماد على اسيطيل صغير. وكان على حق عندما شكل قناعة لنفسه بأن مركز الثقل في كل حرب قارية - أوروبية - تشترك فيها انكلترا، انما يقع في القنال الانكليزي. ولم تكن به حاجة كبيرة لبذل الجهد

---

(٤٧) اللورد كيث: (KEITH, GEORGE) أميرال انكليزي، من مواليد منطقة سيترلينغ. (١٧٤٦ - ١٨٢٣م) برز اسمه في عمليات أمريكا والهند والبحر الأبيض المتوسط وبحر البلطيق.

في تقدير الموقف حتى يتأكد من أن اسيطيله الذي نظمه للغزو، ليس أكثر من (دون كيشوت المانش) كما لقب به، ذلك لأنه كان أعجز من أن يضمن الحماية والأمن لنفسه وبنفسه. غير أن هذا المشروع، كما يفترض البعض، لم يكن من بدايته وحتى نهايته أكثر من خطة خداعية هدفها التغطية على عملية حشد الجيوش وتنظيمها والاحتفاظ بها جاهزة للعمل ضد النمسا وروسيا. (وهذا ما أكده نابليون ذاته في حديثه مع أحد مستشاريه ـ في كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٠٥، إذ قال له بأن استعدادته لغزو انكلترا، لم تكن أكثر من تظاهرة خداعية لتغطية عملية حشد الجيش الكبير المخصص لغزو النمسا. ولكن ألا يحتمل أن يكون تصريح نابليون بأهدافه ومخططاته أمام أحد مستشاريه هو بدوره خطة لخداع خصومه؟). المهم في الأمر، هو أنه لم يكن من السهل على نابليون خداع الجيش الانكليزي المخصص لدعم النمسا، إذ كان من المعروف عن نابليون بأنه لا يعمل أبداً على أساس خطة ثابتة أو أنه يلتزم بخطة معينة، فقد كان يحمل في قبضته باستمرار مجموعة من الحلول التبادلية لمجابهة كل موقف من المواقف.

لم يكن باستطاعة انكلترا في كل الأحوال تجاهل الاستعدادات الافرنسية، فقد بذل نابليون جهداً جباراً لزيادة حجم جيوشه وإمدادها بالجنود النظاميين والمتطوعين لزيادة تهديد انكلترا بالغزو. وقد أكدت البيانات الرسمية ليوم ٩ كانون الأول ـ ديمسبر ـ ١٨٠٣ بأن فرنسا حشدت حتى هذا التاريخ قوة من (٤٦٣) ألفاً من المقاتلين. وأمكن لها زيادة هذه القوة حتى بلغت في الأول من كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٠٥ ما يزيد على (٥٩٠) ألف مقاتل. وقد كان ذلك جهداً جباراً بالنسبة لاقليم لا يتجاوز عدد سكانه العشرة ملايين.

تقدمت الحكومة الروسية من الحكومتين البريطانية والنمساوية بعرض (في فصل الخريف من سنة ١٨٠٣) وذلك بهدف مجابهة المخططات النابوليونية الرامية للتعاون مع الدولة العثمانية. غير أن العرض الروسي لم

يحظ بأي اهتمام. غير أن عودة (وليم بت)[٤٨] لمنصب رئاسة مجلس الوزراء البريطاني، في شهر أيار ـ مايو ـ ١٨٠٤ قد أسهم في تبديل الموقف، فظهر الاهتمام الكبير بالعرض الروسي. إذ أدرك (بيت) أنه من المحال على بريطانيا العظمى العمل وحدها لشن هجوم ناجح وشامل ضد (نابليون). ورأى في المقترحات الروسية وسيلة لاقامة تحالف جديد ضد فرنسا. ولكن كانت هناك عقبة في وجه هذا التحالف، ذلك لأن (روسيا) كانت تريد تجريد (تركيا) من لدول التابعة لها في أوروبا، والحاق (مولدافيا)[٤٩] و(القسطنطينية) بالامبراطورية الروسية. وتجزئة بقية الدولية العثمانية ـ الإسلامية ـ إلى دول تحت الحماية الروسية، بالاضافة إلى حصول روسيا على جزيرة مالطا. وبنتيجة ذلك فقد تطاولت مرحلة الاتصالات الديبلوماسية، ولم يتم الوصول إلى اتفاق حتى يوم ١١ ـ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٠٥ حيث عقدت معاهدة بين بريطانيا العظمى وروسيا. وتم الاتفاق وفقاً لهذه المعاهدة، على تعزيز السلم. وتحقيق التوازن في القوى. وكان (بيت) قد أرسل قبل التوقيع على هذه المعاهدة بفترة قصيرة، قوة عسكرية للعمل (حامية في مالطا). وعلى أثر ذلك تم ارسال (٨) آلاف مجند لاحتلال

---

(٤٨) وليم بت: (PITT- WILLIAM) الابن، الذي حمل اسم والده (وليم بت أيضاً). ووليم بت ـ الابن ـ رجل دولة انكليزي، من مواليد (هاي: HAYES (١٧٥٩ ـ ١٨٠٦) اشتهر بأنه العدو اللدود للثورة. نظم ثلاثة تحالفات ضد فرنسا. غير أنه لم يتمكن من إعاقة نابليون من احراز انتصاراته؛ كما أنه لم ينجح في انقاذ الاقتصاد البريطاني الذي كان يعاني من أزمة مؤقتة.

(٤٩) مولدافيا: (MOLDAVIE) وفي اللغة الرومانية (MOLDAVA) إمارة قديمة كانت قائمة على نهر الدانوب، وقد ضمت في سنة ١٨٥٩ إلى (فالاشيا: VALACHIE فشكلتا المملكة الرومانية، التي استمرت حتى سنة ١٩١٨م. ويبدأ السهل المولدافي من شرق (الكاربات) حيث يرويه نهر (السيريت: SIRET) وعاصمته (ياشي: IASHI). وكان قسم من مولدافيا يمتد إلى الضفة اليسرى من نهر (الدنيستر DENIESTER) أصبح يشكل منذ سنة ١٩٢٤ جمهورية سوفييتية مرتبطة باوكرانيا. وفي سنة ١٩٤٠ أصبحت مولدافيا عضواً في (الاتحاد السوفييتي). وقد احتلها الجيش الروماني (١٩٤١ ـ ١٩٤٣) وأقام فيها دولة حملت اسم (ترانسنيستري: TRANSNISTRIE). وعندما انتصر الاتحاد السوفييتي عمل على توسيع حدود موالدافيا بإضافة قسم من بسارابيا إليها: (BESSARABIE). ومساحتها حالياً (٣٤) ألف كيلو متر مربع، وعاصمتها كيشينييف: (KICHINEV).

صقليا. وقد تمكنت هذه القوات، بفضل دعم (نيلسون) لها، من حرمان فرنسامن السيطرة على هذه القواعد الاستراتيجية، واضعاف نفوذ فرنسا في حوض البحر الأبيض المتوسط.

لم يحدث أي اشتباك بين فرنسا وانكلترا في سنة ١٨٠٣، واستمر الهدوء ـ الذي يسبق العاصفة ـ طوال الأشهر الأولى من سنة ١٨٠٤م. ذلك أن الدولتين فرنسا وبريطانيا كانتا تكملان استعداداتهما للصدام المصيري، صدام الحياة أو الموت. وكان نابليون قد رغب في إضفاء هالة شخصية لنفسه، ومزيداً من الهيبة لبلاده ـ فرنسا، فأقدم قبل سنة من إعلان الحرب على تنصيب نفسه امبراطوراً في كنيسة نوتردام (يوم ١٨ ـ أيار ـ مايو ـ ١٨٠٤).

٣ ـ معركة (الطرف الأغر).

وجدت انكلترا ذاتها عند تجدد الحرب مع فرنسا، وهي في أضعف المواقف التي جابهتها منذ سنة ١٧٨١ م. وهي لم تعد تجابه في موقفها هذا قوة الأساطيل المشتركة لدول فرنسا وهولاندا، وإنما جابهت أيضاً تحالف أسبانيا مع فرنسا. وكان ذلك يعني أنه بات باستطاعة (نابليون) الإفادة من كل الموانئ. والخلجان ما بين (تيكسيل) و(جنوى) سواء من أجل صناعة السفن أومن أجل اصلاحها، أو من أجل اللجوء إليها والاحتماء بها. وزيادة على ذلك، فقد كان من الواضح تماماً بأن (نابليون) يمتلك كل تصميم لغزو انكلترا، حيث كانت مطارق مصانع السفن في فرنسا تعمل بحميا شديدة، حتى انه تم انتاج (٢٣٤٣) زورقاً للانزال بتاريخ شهر آب ـ أغسطس ـ ١٨٠٥ م. وكان (نابليون) يؤكد باستمرار أنه يعتزم العمل تدريجياً لتكوين بحرية فرنسية تضم (١٣٠) سفينة حربية، تدعمها (٦٠) سفينة اسبانية و(٢٠) سفينة حربية هولاندية. و(١٥) سفينة حربية جنوية. غير أن ذلك لم يتحقق، وعلى الرغم من الحملات الكثيرة التي استمرت من سنة ١٨٠٥، وإلى نهاية حكم نابليون، فإن الأسطول الافرنسي لم يتجاوز في سنة ١٨١٥

قوة (١٠٣) سفن حربية و(٥٥) حراقة ـ فرقاطة ـ. في حين امتلكت البحرية البريطانية في سنة ١٨١٤، قوة تضم (٢٤٠) سفينة حربية و(٣١٧) حراقة ـ فرقاطة. وأكثر من (٦١١) زورقاً أصغر ـ خفيف ـ.

لم تكن مشكلة البحرية البريطانية، بنتيجة ذلك، هي في مجرد مجابهة اسطول الحلفاء إذا ما اقترب من القنال، بل أيضاً في منع كل سفن الحلفاء ـ ما هو في الخدمة العاملة وما يتم صنعه فيها ـ من مغادرة موانئها والوصول إلى البحر. وذلك يعني أنه يجب إحكام الحصار بطريقة لا تسمح بفرار أية سفينة أو مجموعة من السفن قد يؤدي ظهورها في البحر إلى مجموعة من التفاعلات، التي تستثير سفناً أخرى للحلفاء. وقد كان تنفيذ هذا الواجب عسيراً، زاد من صعوبته إعلان أسبانيا الحرب على انكلترا في ١٢ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٠٤ م.

كانت السفن الحربية للحلفاء، إذن، موزعة ومنتشرة على النحو التالي: في (طولون) ١١ سفينة، وفي (قرطاجنه)[٥٠] خمس سفن، وفي (قادس) عشر سفن، وفي (فيرول)[٥١] تسع سفن، وفي (روشفورت)[٥٢] خمس سفن، وفي (بريست) إحدى وعشرين سفينة، وفي (تيكسيل) ست سفن. وكان (نلسون) يحاصر المجموعتين الأولى والثاني (في طولون وقرطاجنة) بقوة (١٢) سفينة حربية. في حين كان (سير جون اورد) يحاصر المجموعة الثالثة (في قادس) بقوة خمس سفن. بينما كان الأميرال (كورنواليس) ومعه (٣٧) سفينة يحاصر المجموعات الرابعة والخامسة

---

(٥٠) قرطاجنة: (CARTHAGENE) وفي الاسبانية (CARTAGENA) مدينة اسبانية في إقليم مرسية، ولها خليج على البحر الأبيض المتوسط، شيدها العرب الفينيقيون في سنة ٢٢٣ ق.م.

(٥١) فيرول: (LE FERROL) وفي الاسبانية (EL FERROL DEL- CAUDILLO) مدينة اسبانية ولها خليج كبير على المحيط الأطلسي، أصبح حالياً قاعدة عسكرية ـ بحرية.

(٥٢) روشفورت: (ROCHEFORT) مدينة بحرية ترنسية، كانت منذ القدم داراً لصناعة السفن والأسلحة، وهي تضم اليوم قاعدة بحرية، وكلية للطب البحري، مشهورة بتحصيناتها القديمة.

والسادسة في مياه (توشانت) وفي (خليج الباسك)[٥٣] وبقي حصار المجموعة السابعة من نصيب (اللورد كيث) الذي كان يتولى قيادة تسع سفن حربية واجبها العمل في (داون)[٥٤] وبحر الشمال. وبالإضافة إلى ذلك فقد احتفظت بريطانيا في موانئها بخمس سفن حربية - احتياطية - علاوة على (١٢) سفينة حربي كانت قد أرسلتها إلى الهند الشرقية والهند الغربية. ويظهر من ذلك أن تفوق بريطانيا البحري في المياه الأوروبية كان تفوقاً بسيطاً على مجموع قوات الحلفاء البحرية.

لقد كان هذا القصور في القدرة البحرية البريطانية، أمراً يتناقض مع التقاليد البحرية البريطانية، ومع التزام هذه البحرية بسياسة ثابتة تقضي بحماية انكلترا من كل قوة قد تتقدم نحوها عبر الموانىء الغربية للقنال. وكان ذلك يتطلب إعداد اسطول قوي يحمي (اوشانت)[٥٥] ويجعل من المحال على أي اسطول التقدم للغزو، إذ انه سيصطدم باسطول (كيث) المتمركز في (داون). وتنفيذاً لذلك، فقد تم تعزيز قوة (اوشانت) ودعمها، حتى تصبح قادرة لا على منع سفن الغزو من الفرار فحسب، بل على التصدي لها بحزم، وإرغامها على القتال. وأصبحت قوة (اوشانت) بالتالي هي مركز الثقل في الدفاع البحري البريطاني. وفقد اسطول (كورنواليس) بالتالي كل أهمية له وبات دوره الدفاعي ثانوياً. ويقتصر على تغطية قوات (كيث - في أوشانت). فلو أنه فشل في مهمته، ولم يتمكن من تأمين هذه التغطية لأصبح (كيث) مكشوفا، الأمر الذي سيسمح لأي اسطول ينطلق من (بولوني)[٥٦] أن

---

(٥٣)خليج الباسك: (BISCAYE) وفي الاسبانية (VIZCAYA) أحد الخلجان التابعة للباسك الاسبانية (شمال اسبانيا) وتحمل المدينة اسم (بيسكاي) وهي تابعة للاقليم الذي تسمى عاصمته باسم بيلباو (BILBAO).

(٥٤)داون: (DOWN) مدينة في ايرلنده إلى الشمال من (اولستر: ULSTER)تقع على البحر.

(٥٥)اوشانت: (OUCHE)(USHANT) إقليم في النورماندي.

(٥٦) بولوني: (BOULOGNE-SUR-MER)مدينة رئيسية على مضيق(بادوكاليه: Pas - De- Calais) ولها خليج كبير على بحر المانش، وهناك معسكر بولوني. (CAPM DE BOULOGNE) وهو المعسكر الذي أقامه نابليون سنة ١٨٠٥، لغزو انكلترا.

يصل إلى أهدافه دونما عائق، إلا عائق الأحوال الجوية. وقد أدرك نابليون نقطة الضعف في هذا التنظيم الدفاعي، إذ انه على الرغم من معلوماته المحدودة في أفق الاستراتيجية البحرية، إلا أن هذه الاستراتيجية كانت بسيطة، وتعتمد على أسس ومبادىء معروفة عالمياً، ومتعارف عليها، ولم يكن يهمه كثيراً أن يدخل في تفاصيل المبادىء التعبوية ـ التكتيكية ـ لمبادىء عمل البحرية.

لقد انطلقت مسيرة أحداث الحملة التي انتهت بمعركة (الطرف الأغر)[٥٧] من التعليمات التي أصدرها نابليون في يوم ٢ ـ آذار ـ مارس ـ ١٨٠٥، إلى كل من الأميرال (غانثوم) في (بريست) والأميرال (فيللنوف) في (طولون). غير أن إيضاح الموقف، وإلقاء الضوء على مسيرة تلك الأحداث، يتطلب بالضرورة العودة إلى يوم١٢ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٠٤، وهو اليوم الذي أعلنت فيه اسبانيا الحرب على انكلترا.

أصدر (نابليون) أوامره في ذلك اليوم إلى (فيللنوف) باختراق حصار (طولون) والابحار إلى (الهند الغربية)[٥٨] والاتصال في (المارتينيك)[٥٩] مع الأميرال (ميسييسي) الذي كان عليه بدوره مغادرة (روشفورت) والانضمام إليه. حيث يقيمان هناك لمدة ستين يوماً، يعملان خلالها على الحاق أكبر قدر من الخسائر والأضرار بالممتلكات البريطانية. حيث يعود (فيللنوف) بعدها إلى (فيرول) ليحرر القبطان (غوردون) الذي كان محاصراً ومعه خمس سفن حربية وفرقاطتين ـ حراقتين ـ. ثم التوجه بهذه القوة إلى (روشفورت).

استطاع (ميسييسي) الهرب من قبضة الحصار، ومغادرة (روشفورت) في يوم ١١ كانون الثاني ـ يناير ـ ومعه خمس سفن حربية وأربع حراقات ـ

---

(٥٧) الطرف الأغر: (TRAFALGAR) رأس في اسبانيا، يقع إلى الشمال ـ الغربي من مضيق جبل طارق. اشتهر بانتصار نيلسون على الأسطول الفرنسي ـ الاسباني سنة ١٨٠٥م.

(٥٨) الهند الغربية: (INDES OCCIDENTALES) أو (WEST- INDIES) هو الاسم الذي أطلق على أمريكا يوم اكتشفها (كريستوف كولومب) وظن أنها امتداد للهند، ولم يعرف أنه اكتشف قارة جديدة.

(٥٩) مارتينيك: (MARTINIQUE) إحدى حزر الانتيل الصغرى الفرنسية، ومساحتها (١١٠٠ كيلومتر مربع) احتلها الفرنسيون منذ سنة ١٦٣٥، وانتزعها منهم الانكليز مرات عديدة

فرقاطات ـ توجه بها إلى (المارتينيك). وبعد ذلك باسبوع، وبينما كان (نيلسون) يقودا اسيطيله إلى (مادالينا) في مضيق (بونيفاسيو)[٦٠]. كان (فيللنوف) قد انطلق من (طولون) ومعه (١١) سفينة حربية و(٩) حراقات. وما أن علم (نيلسون) بهرب خصمه (فيللنوف) من قبضة الحصار، حتى أهمل كل الاحتمالات، إلا احتمالاً واحداً وهو أن (فيللنوف) قد توجه إلى (مالطا) أو (مصر). وبهذا فقد بادر على الفور لركوب البحر حيث وصل إلى الاسكندرية في يوم ٧ شباط ـ فبراير ـ وعندما لم يجد فيها خصمه، رجع إلى (مالطا) حيث علم بأن عاصفة عاتية قد هبت على اسطول (فيللنوف). وأرغمته على العودة إلى قاعدته (طولون).

أصر (نيلسون) على اعتقاده بأن (فيللنوف) يريد التوجه إلى مصر، ولهذا فقد أبحر يوم ٢٦ آذار ـ مارس ـ من مالطا، وألقى مراسيه في جنوب سردينيا، حتى تتاح له فرصة اعتراض خصمه (فيللنوف) عندما يعود لركوب البحر. غير أنه لم تمض عليه أكثر من أربعة أيام حتى وصلته المعلومات بأن خصمه قد ركب البحر من جديد، واتجه إلى جهة مجهولة. ولم يكن (نيلسون) يعرف أن (فيللنوف) قد بدأ بتنفيذ الأوامر والتوجيهات التي أصدرها إليه نابليون في يوم ٢ آذار ـ مارس ـ.

لقد كان هدف (نابليون) من تلك التعليمات هو حشد اسطول يضم أكثر من أربعين سفينة حربية في (المارتينيك). وكانت الكتلة الرئيسية في هذه القوة هي اسيطيل (بريست) الذي كان يقوده (غانتوم) ويضم (٢١) سفينة حربية و(٦) حراقات، بالإضافة إلى اسيطيل (طولون) بقيادة (فيللنوف) والذي يضم بدوره (١١) سفينة حربية و(٦) حراقات أيضاً. وكان على (فيللنوف) أن يحرر وهو في طريقه مجموعة السفن المحاصرة في (فيرول) بقيادة (غوردون) والتي تضم (٤) سفن حربية وحراقتين. وعليه أن يحرر

---

(٦٠)تقع جزر مادالينا: (MADDALENA- ISLANDS) في مضيق بونيفاسيو: (STRAIT OF BONIFACIO)وبونيفاسيو هي مدينة في (كورسيكا) أطلق اسمها على المضيق الذي يفصل كورسيكا عن سردينيا.

بعدها السفن المحاصرة (بفتح الصاد) في خليج (قادس) والتي كانت تعمل بقيادة الأميرال الاسباني(غرافينا) ومعه (٧) سفن حربية. وكذلك كان على (ميسيسي) أن ينضم إليهم في (المارتينيك)، ومعه (٥) سفن حربية و(٤) حراقات. وعندما يتم ذلك، يتولى (غانتوم) القيادة العليا للأساطيل المشتركة، ويتوجه بها إلى (اوشانت) لمهاجمة الأسطول الانكليزي هناك. والعودة إلى (بولوني). وقد تلقى (فيللنوف) الأوامر بالذهاب إلى (المارتينيك) والوصول إليها قبل (غانتوم). والانتظار هناك لمدة أربعين يوماً من أجل تأمين الاتصال مع (غانتوم) وإذا لم يتحقق ذلك، لسبب من الأسباب، فعليه العودة باسطوله إلى (قادس) حيث يجد الأوامر اللازمة في انتظاره لتنفيذ المهمة الجديدة.

قد يكون من المناسب هنا، وقبل الذهاب بعيداً في الصراع الذي وصل ذروته في معركة (الطرف الأغر) التعرض بإيجاز إلى طباع وميزات القائدين اللذين مارسا الدور الاساسي وهما (فيللنوف) و(نيلسون).

وكان (فيللنوف) أصغر عمراً من (نيلسون) بخمسة أعوام. إذ كان الأول من مواليد سنة ١٧٦٣ بينما كان الثاني من مواليد ١٧٥٨. وكان (فيللنوف) ينحدر من طبقة النبلاء الفرنسيين، وهو واحد من مجموعة قليلة ممن أبقت عليهم الثورة من ضباط البحرية، رغم انتسابهم، أو تصنيفهم، في زمرة ذوي الأصل أو أصحاب الجذور العريقة المحتد، هذا علاوة على ترفيعه بسرعة في سلم ترقيات ضباط البحرية. وبقي (فيللنوف) بحاراً مجداً، دؤوباً، على درجة عالية من الثقافة. وقد أمكن له تقديم خدمات رائعة في عمله بقيادة سلاح البحرية، غير أنه لم يكن أهلاً لممارسة القيادة الميدانية. لم تكن تنقصه الشجاعة الشخصية أبداً، غير أن مزاجه كان انهزامياً. ولعل السبب في ذلك هو عدم ثقته بمشاريع نابليون لغزو انكلترا، وعدم ثقته أيضاً بمرؤوسيه أو حلفائه، والأسوأ من ذلك كله عدم ثقته بنفسه. وقد تولى (فيللنوف) في معركة النيل قيادة السفينة (وليم تل) وهي إحدى السفينتين اللتين تمكنتا من النجاة، والخروج من المعركة سالمتين.

وبقيت ذكريات معركة (أبو قير) شبحاً يشل قدرة (فيللنوف) وذلك بالرغم من الصدمة التي صدمها (فيللنوف) عند تعرفه على شخص (نلسون).

كان (نلسون) شخصاً يناقض تماماً (فيللنوف) ويقف معه على الطرف المضاد. فقد كان نيلسون جريئاً، مقداماً، يتمتع بخيال تعبوي ـ تكتيكي ـ خصب، وهو إلى ذلك مستقل في تطلعاته الخارجية وفي تقويمه للأمور، علاوة على طموحه وشدة حرصه على سمعته. وهو إلى ذلك أيضاً معتد بنفسه إلى درجة الزهو والخيلاء، وعنيف في خصومته وعدائه. وقد تميز بروح معنوية عالية وشجاعة فائقة ويظهر ذلك واضحاً في عمله عندما ترك تشكيل القتال في معركة (سانت فانسان) وانطلق بمفرده لمهاجمة الأسطول الاسباني، وهي المعركة التي وصفها القبطان (غرينفيل) بقوله: «**لقد كانت ملحمة بمبادأة فردية... لا نظير لها في تاريخ المعارك البحرية ولا مثيل... إنها عمل له قيمة لا يمكن تقديرها**». ولعله من الصعب مقارنة الروح القتالية التي ظهرت لدى نيلسون في معارك النيل وكوبنهاغن والطرف الأغر بما هو متوافر من هذه الروح القتالية لدى أقرانه الذين اشتبك معهم في الحرب. وإذا ما أظهر (نلسون) إعراضاً عن الاهتمام بالاستراتيجية، فذلك لأنه لم يقتنع، أو بالأحرى فشل في تكوين قناعة، بأن الاستراتيجية هي علم من العلوم. ولكنه على الرغم من ذلك اتخذ من المواقف الصحيحة ما يؤكد اعتماده على مجموعات من الحقائق وليس على مجرد حدس أو تخمين.

كانت أكبر حقيقة استراتيجية هيمنت على سنة ١٨٠٤ ـ ١٨٠٥ هي التهديد البحري الذي وجهه نابليون ضد انكلترا، غير أن برقيات (نلسون) ورسائله في هذه السنة لم تتضمن كلمة (الغزو) إلا مرة واحدة، وكان ذلك عندما تخلى (نابليون) عن فكرة الغزو ومشاريعه. ويعود السبب في ذلك إلى أن نظرة (نلسون) بقيت مركزة على البحر الأبيض المتوسط، وعلى هذا الأساس أمكن للأميرال (فيللنوف) تضليل (نيلسون) وخداعه ـ ولو أن هذا التضليل جاء عفوياً وعن غير ما قصد. وفشل (نيلسون) في إدراك ما

حدث من تحول، إذ انتقل مركز الثقل في الصراع البحري خلال سنة ١٨٠٤ ـ ١٨٠٥ إلى القنال الانكليزي، ولم يعد هذا المركز مستنداً إلى سردينيا أو مصب نهر النيل. ولكن، وعلى الرغم من هذا القصور، فالحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن الأميرال (نلسون) كان من أعظم قادة البحر الذين أنجبتهم انكلترا.

كان الأميرال (نلسون) يقف في يوم ١٠ ـ آذار ـ مارس ١٨٠٥ ومعه قوته البحرية، في خليج (بالما) عند الزاوية الجنوبية ـ الغربية من (سردينيا). وعندما ترامت له أنباء قيام (فيللنوف) بحمل جنوده في السفن، توجه بقوته البحرية إلى (طولون) حيث شاهد فيها كل المؤشرات التي تؤكد أن (فيللنوف) على وشك ركوب البحر، واستنتج من ذلك أن الاحتمال الأكبر هو أن تتوجه القوة البحرية الفرنسية إلى مصر. فعاد بسرعة إلى (بالما) حيث يمكن له من موقعه تأمين الحماية لنابولي وصقلية، والامساك بالطريق البحري المؤدي إلى مصر. وكان موقعه هذا يضمن له فرصة توجيه الضربة نحو الغرب وذلك فيما إذا كان هدف (فيللنوف) التوجه باسطوله نحو الغرب ـ حيث المحيط الأطلسي ـ. وقد بقي هناك حتى يوم ٣٠ ـ آذار ـ مارس ـ وهو اليوم الذي انطلق فيه (فيللنوف) لتنفيذ تعليمات (نابليون). حيث غادر (طولون) إلى (قادس) وضم إليه قوة (غرافينا) قبل أن يبحر إلى الهند الغربية.

تلقى نيلسون المعلومات الأولى عن خروج (فييلنوف) إلى البحر في يوم ٤ نيسان ـ ابريل ـ حيث أخبرته إحدى حراقاته (فرقاطه) بأنها شاهدت قوة (فيللنوف) البحرية على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب من طولون، أي على بعد ثلاثمائة ميل إلى الغرب من (بالما). وأرسل (نيلسون) هذه المعلومات في برقية وجهها من قبله إلى وزارة البحرية في لندن (الأدميراليتي) وقال فيها (إنني سأتوجه إلى مصر). ويظهر من ذلك أن (مصر) بقيت فكرة ثابتة في تفكير (نيلسون) ولهذا فقد اعتقد بأن خصمه (فيللنوف) سيتوجه إلى جزيرة

(غاليتا) المقابلة لمدينة (بنزرت)[٦١] في محاولة منه للوصول إلى الاسكندرية. ملتزماً في تحركه الساحل الافريقي. فقرر نيلسون اتخاذ مواقع مناسبة بنشر قطع اسطوله على امتداد المسافة ما بين (سردينيا) و(غاليتا). غير أنه لم ينفذ قراره مباشرة أو بصورة فورية وذلك خشية قيام (فيللنوف) بعملية استدارة من حول شمال سردينيا، وكل ما فعله هو سحب مواقعه إلى شمال (اوستيكا) الواقعة على بعد خمسين ميلاً إلى الشمال من (باليرمو) ووصل إلى هناك يوم ٧ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٠٥. وفي هذا اليوم ذاته، كان (فيللنوف) قد أصبح في المياه الاقليمية لمدينة (قرطاجنه). وكان (نيلسون) قد أرسل (سير ريتشارد ستراخان) بمهمة مرافقة قافلة تجارية متوجهة من (الجزيرة)[٦٢] إلى انكلترا، وقد قام (سير ريتشارد) بإعلام (اورد) عن مشاهدته للأسطول الافرنسي، وكان (أورد) هذا هو المكلف بمحاصرة (قادس) وارغام قوة (غرافينا) على البقاء فيه. وفي يوم ٨ نيسان ـ ابريل ـ شاهد (اورد) فيللنوف وهو يغادر باسطوله المضائق (مضيق جبل طارق) غيرأن(أورد) لم يكن يتولى قيادة أكثر من أربع سفن حربية وهذا ما وضعه أمام مأزق صعب للغاية، وكان أمامه أحد خيارين اثنين: فاما البقاء في مواقعه وانتظار نيلسون، وإما التحرك مقترباً من (أوشانت). غير أن (أورد) لم يلبث أن اتخذ قراره، عندما أبلغه (سير ريتشارد) بأن (نيلسون) منصرف باهتمامه نحو مصر. فقام (اورد) بترك طراداته (فرقاطاته) للمحافظة على التماس مع (فيللنوف) ثم أقلع ببقية السفن متوجهاً نحو الشمال، وذلك بعد أن أعلم وزارة البحرية (الأدميراليتي) بقراره.

---

(٦١) بنزرت: (BIZERTE) مدينة في تونس، لها ميناء بحري رائع، وهو قاعدة بحرية. على البحر الأبيض المتوسط، ولبنزرت بحيرة تسمى (بحيرة بنزرت) تساعد على اقفال الميناء وتكوين حوض لصيانة السفن واصلاحها وبناء السفن.

(٦٢) الجزيرة: (ALGESIRAS) هي المنطقة المحيطة بقادس. وكان العرب المسلمون يستخدمونها لانزال قواتهم وحشدها، وهم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم، والجزيرة تشرف على مضيق جبل طارق. وقد أشادت المراجع الأندلسية العربية كثيراً بمحاسن الجزيرة.

لقد تضمنت البرقية التي أرسلها (أورد) نقاطاً مضيئة جداً، ذلك لأنها تبرز بصورة واضحة صحة تقويم (أورد) للموقف الاستراتيجي، وهو الموقف الذي استطاع رجل من رجال (نيلسون) إداركه. ، في حين فشل هو ذاته في الاحاطة به، رغم ما كان بين الرجلين من الخلاف، ورغم ما وجهه (نيلسون) إلى (اورد) من كلمات لاذعة ونقد جارح[٦٣]. ولقد تضمنت برقية (اورد) ما يلي: «**إنني على قناعة تامة بأن ـ فيللنوف ـ لن يتوقف طويلاً في ـ قادس ـ. وأرى بأن أمامه فرص عظمى للتوجه نحو الهند الغربية حيث يمكن له العمل بسرعة لحشد مجموعة من الأساطيل المتفرقة. ولعل نابليون يأمل من ذلك الحصول على تفوق بحري موقت في منطقة القنال الانكليزي، الأمر الذي يساعده على توجيه ضربة حاسمة ـ وقاتلة ـ إلى أعدائه**». ولقد كان ذلك بدقة هو ما يعتزم نابليون تنفيذه. وهكذا فعندما دخل (اورد) على مخطط ـ نابليون ـ بات مقتنعاً بضرورة دعم اسطول القنال. فتحرك بقوته شمالاً للوصول إلى مركز الثقل في الصراع وهو (قاعدة أوشانت).

ألقى (فيللنوف) مراسيه في مياه (قادس) وأرسل شارة إلى (غرافينا) حتى يغادر الميناء ويلحق به، غير أن مخاوفه كانت كبيرة من أن يكون (نيلسون) جاداً فى اتباع أثره ومطاردته، ولهذا فما ان أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة من بعد منتصف الليل، حتى نفذ صبره من الانتظار، ورفع مراسيه، وترك (غرافينا) مبتعداً عن السواحل الاسبانية وبقي على (غرافينا) بذل قصارى جهده ليلحق به.

لم يظهر (فيللنوف) في (البحر التيراني)[٦٤] كما كان يتوقع (نيلسون)

---

(٦٣) لقد كانت بين الرجلين خصومة قديمة تعود إلى سنة ١٧٩٨م، وتفاقمت هذه الخصومة في سنة ١٨٠٤ عندما تم تعيين (اورد) لحصار (قادس) وممارسة قيادة مجزبة من الناحية المادية، إذ حصل (اورد) على مكافأة كان (نيلسون) يشتهيها ويرغب في الحصول عليها.

(٦٤) البحر التيراني : (TYRRHENIAN- SEA) هو البحر الواقع بين ايطاليا وكورسيكا وسردينيا وصقليا.

وعلى أثر ذلك مباشرة، سحب (نيلسون) سفنه من (اوستيكا) وأتى (تورو) وهي جزيرة صغيرة بالقرب من خليج (بالما). وعندما علم في يوم ٨ (نيسان ـ ابريل) بأن سفن (فيللنوف) قد شوهدت عند مضيق جبل طارق، أرسل إلى وزارة البحرية (الادميراليتي) برقية أعلمها فيها «**بأن العدو لم يغامر في إرسال حملة إلى البحر الأبيض المتوسط، لأنه وجد بأن من المحال عليه ذلك نظراً لتدابير الحيطة التي اتخذها هناك ـ نيلسون**» ثم لم يلبث أن أرسل برقية في اليوم التالي أيضاً، أشار فيها أنه مقتنع بأن (فيللنوف) لم يتوجه إلى الهند الغربية، وإنما هو متوجه إلى (بريست) أو (ايرلنده) ولهذا فإنه سيغمل على مغادرة جزر صقليا. غير أنه وصل في نهاية هذا اليوم ذاته إلى تبني وجهة نظر وزارة البحرية البريطانية وفقاً لما سبق ذكره (أي توجه فيللنوف إلى الهند الغربية).

هبت عاصفة هوجاء أخرت تقدم (نيلسون) بحيث انه لم يصل إلى جبل طارق حتى يوم ٦ (أيار ـ مايو) وهناك التقى بمؤخرة القوة البحرية التابعة لقيادة (دونالد كامبل) والذي كان يعمل مع البحرية البرتغالية. وقد عمل (كامبل) على إعلام (نيلسون) بتحرك (فيللنوف) نحو الهند الغربية. مما أكد له فكرته الأخيرة، فاندفع بتهوره المعهود، وحماسته المعروفة للقتال، وفي يوم ١٠ (أيار ـ مايو) قاد قوته المكونة من عشر سفن حربية وثلاث حراقات (فرقاطات) وتوجه بها لعبور الميحط الأطلسي. وقد سجل القبطان (راسل غرينفيلل) ملاحظاته على موقف (نيلسون) هذا ما بما يلي:

«إن قرار نيلسون بالتوجه إلى الهند الغربية هو قرار يحتمل الجدل والنقاش. فقد كان الجيش الفرنسي الذي أطلق عليه اسم ـ جيش انكلترا ـ يقوم باستعداداته للغزو في بولوني بضجيج مرتفع وصوت واضح. وهناك احتمال لا يمكن تجاهله، للربط بين عملية الغزو هذه وبين حركة الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال (فيللنوف) إلى الهند الغربية، حيث يقوم هذا الأسطول بنقل الجيش عبر القنال. وحيثما اتجه (فيللنوف) فهناك شهر من السبق الزمني يمتلكه ويتقدم به على نيلسون. فإذا ما أمكن لدى الطرفين

المتصارعين أسبابها الصحيحة، فإنه بالامكان الافتراض أن حركة الأسطول الفرنسي ـ الاسباني إنما كانت تتضمن في جزءمنها، ابعاد الاسطول البريطاني عن القنال، وإقامة فخ له سواء كان توجه الاسطول الفرنسي ـ الاسباني إلى الغرب أو إلى الجنوب الغربي. ونظراً لوجود فاصل زمني كبير، فإنه لأمر محتمل أن يكون الأسطول الفرنسي ـ الاسباني قد أخذ طريق العودة للوصول إلى هدفه النهائي والحاسم. ولهذا، فهناك خطر كبير في أن ينطلق (نيلسون) بتحركه نحو الغرب بعد ذلك التأخر الكبير، إذ انه سيصبح تحت رحمة خصمه (فيللنوف). ويمكن القول، بسهولة، ان النظرة الشاملة للأفق الاستراتيجي تفرض على (نيلسون) التوجه إلى (بريست) ليكون في الموقع المناسب من أجل مجابهة موقف خطر وغير ثابت».

هناك سبب آخر أشار إليه القبطان (غرينغيلل) ويقضي بانضمام (نلسون) إلى (كورنواليس). وهذا السبب هو: «**كان نلسون قد أرسل برقية إلى وزارة البحرية يوم ١٩ نيسان ـ ابريل ـ أعلمها فيها قراره بالابحار نحو جزر صقليا. وقد تلقت وزارة البحرية هذه البرقية وهي على علم بالاتجاه الحقيقي الذي يعتزم ـ فيللنوف ـ التحرك عليه، واتخذت قرارها لملاحقته ومتابعة مراقبته، وقامت بتنفيذ الاجراءات الضرورية لذلك. وتضمنت هذه الإجراءات أن يقوم نلسون بشق طريقه في البحر نحو الهند الغربية بقوة مجموعتين قتاليتين لا بقوة مجموعة قتالية واحدة، لضمان فرص نجاح المطاردة. وتنفيذاً لذلك، فما ان علمت وزارة البحرية ـ الأدميراليتي ـ عن طريق ـ أورد ـ في يوم ٣٠ نيسان ـ ابريل ـ بأن (فيللنوف) قد اتجه نحو الهند الغربية، ثم جاءت معلومات أخرى ـ عن طريق العملاء ـ فأكدت مضمون برقية ـ أورد ـ حتى أصدر القائد العام للبحرية أوامره إلى مجموعة تضم ١١ سفينة حربية بقيادة (الأميرال كولينغوود) بالتوجه إلى هناك. غير أن نلسون كان قد اتخذ قراره بعبور المحيط، وقد عرف ـ كولينغوود ـ بذلك مصادفة[٦٥] وهو في عرض**

---

(٦٥) وقد حدثت هذه المصادفة كالتالي: «كان نلسون قد عمل عند وصوله إلى جبل طارق، على توجيه =

البحر. ولولا ذلك لكانت هناك (٢١) سفينة حربية قد انطلقت لمطاردة - فيللنوف - بدلاً من تلك السفن العشر التي كان يقودها نلسون».

وصل نلسون يوم ٤ حزيران - يونيو - إلى (باربادوس)[٦٦] بعد رحلة بحرية سريعة وهناك انضم إليه مساعد - الأميرال (كوشران) ومعه سفينتان حربيتان. وهناك أيضاً تلقى معلومات خاطئة عن الأسطول الفرنسي حيث قيل له بأن هذا الأسطول قد شوهد وهو ينسحب من (سانتا لوسيا) ويتجول حولها. وكانت النتيجة هي ضياع كل أثر للمطاردة، وانقطاع الاتصال بين نلسون وخصمه.

كان (فيللنوف) قد وصل واسطوله الفرنسي الى (المارتينيك) في يوم ١٤ - أيار - مايو - فوجد بأن (ميسيسي) قد رجع إلى (روشفورت). وأن (غانتوم)[٦٧] لم يصلها بعد، إذ بقي هذا الأخير محصوراً في (بريست). وضاق (نابليون) ذرعاً بهذا التأخير، ولم يعد يحتمل المزيد من الانتظار، فبعث بمساعد الاميرال (ماغنون) ومعه سفينتان حربيتان بمهمة نقل التوجيهات الجديدة (الأوامر) الى (فيللنوف) والتي تقضي بمنحه فترة (**٣٥**) يوماً للبقاء في الهند الغربية، اعتباراً من وصول تلك الأوامر. فاذا لم يصل (غانتوم) خلال هذه الفترة، فليس عليه الا العودة الى (الفيرول) وضم السفن الحربية الموجودة في هذا الميناء الى اسطوله (وعددها **١٥** سفينة

= السفينة (صاحبة الجلالة) بقيادة (سير ريتشارد بيكرتون) وذلك بمهمة تغطية ممر الجنرال كرايغ إلى مالطا. وقد أبحر بيكرتون يوم ١٧ أيار - مايو - في اتجاه الشمال وبعد ذلك بعشرة أيام، وبينما كان بيكرتون يقترب من مقاطعة - منينيستير، التقى بالأميرال - كولينغوود - فأعلمه بأن نلسون قد انطلق للمطاردة ومعه عشر سفن حربية».

(٦٦) باربادوس: (BARBADOS) إحدى جزر الانتيل البريطانية، وهي جزيرة صغيرة اشهر مدنها بريدج تاون (BRIDGETOWN).

(٦٧) غانتوم: (GANTEAUME- HONORE) أميرال فرنسي، من مواليد لاسيوتات: (LACIOTAT) الواقعة في إقليم مرسيليا (مصب الرون) وقد عاش في الفترة (١٧٥٥-١٨١٨) قاد القوات البحرية الفرنسية أثناء الحملة على مصر. ثم تولى قيادة الجيش البحري في المحيط (١٨٠٥) وأخيراً قاد اسطول البحر الأبيض المتوسط (١٨٠٨).

حربية). وعندما يتم تحرير هذه السفن من قبضة الحصار، يتم الانتقال الى (بريست) لتحرير ٢١ سفينة حربية تقع بدورها ضمن دائرة الحصار البحري البريطاني، واخيراً، وبهذا الجيش البحري، يتم اقتحام القنال الانكليزي والوصول الى (بولوني).

وصل (ماغنون) في ٤ حزيران ـ يونيو ـ. وعلم (فيللنوف) بوجود (نيلسون) في الهند الغربية يوم ٧ حزيران ـ يونيو ـ. فبلغ به الهياج حداً كبيراً حتى انه أهمل الأوامر الجديدة التي تلقاها من نابليون، وجمع قطع اسطوله على عجل، وأقلع من الهند الغربية، متجهاً نحو اوروبا في يوم ١٠ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٠٥[٦٨]. وبعد يومين من ذلك، وصل (نيلسون) باسطوله الى (آنتيغا) ولما أخفق في العثور على (فيللنوف) قدر بأنه عاد الى اوروبا. وكان تقديره في هذه المرة صحيحاً ـ إذ وضع في اعتباره أنه من المحتمل أن يكون هدف (فيللنوف) هو الوصول الى (قادس) أو (طولون). ولما كان (نيلسون) لا يزال تحت هيمنة فكرة غزو فرنسا لمصر، فقد رجح أن يكون توجه (فيللنوف) نحو مصر، وعلى هذا فانه سيلجأ الى (طولون) على الأغلب، وهذا ما حمله على الكتابة في تلك الفترة: «**لعلهم يأملون في الوصول الى مصر حيث سيبلغونها من غير أن يعترضهم عائق**»[٦٩]. فقرر (نيلسون) العودة الى (جبل طارق). ولكنه قبل أن يبدأ بتنفيذ قراره، عمل على ارسال السفينة الحربية (كوريوس) بقيادة القبطان (بتسوورث) الى انكلترا، لاعلام وزارة البحرية (الادميراليتي) بعودته. وأثناء سير هذه السفينة الى انكلترا،

(٦٨) هناك اختلاف في تحديد هذا التاريخ. فقد جاء في كتاب (حملة الطرف الأغر) ص ١٦٧. (جوليان. س كوربيت ـ ١٩١٠) بأن نيلسون أبحر يوم ١١ حزيران. في حين ذكر القبطان غرينفيلل في كتابه (نيلسون ـ البحار) ص ١٨٣. بأن نيلسون قد أبحر يوم ٨ حزيران ـ يونيو ـ.

(٦٩) يظهر أن نابليون كان على اضطلاع بهاجس نيلسون تجاه مصر. ففي كتاب (رسائل وبرقيات المجلد السادس. صفحة ٤٥٤) كتب إلى دوكريه) برقية تاريخها ٢٠ نيسان ـ إبريل وبرقم ٨٦٠٣ ما يلي (قد يعود نيلسون ثانية إلى مصر). وعاد نابليون فأرسل برقية يوم ٢٣ نيسان ـ ابريل ـ **تحت رقم ٨٦١٧ ـ (نعمل قوة** بحرية أفرنسية **لإنـزال عشرة** آلاف جندي في مصر وتمكن القبطان الفرنسي من تنفيذ مناورة خداعية ضلل بها نيلسون).

شاهدت يوم ١٩ حزيران ـ يونيو ـ الاسطول الفرنسي وهو مسرع في سيره على خط يبتعد نحو الشمال من البحر الأبيض المتوسط. وهذا يعني بأن (فيللنوف) كان يتجه نحو (خليج الباسك) وليس الى مضائق جبل طارق على نحو ما كان يفترضه نيلسون. وعلى كل حال، فقد وصلت السفينة (كوريوس) الى خليج (بليموث) في انكلترا يوم ٧ تموز ـ يوليو ـ وفي يوم ١٩ منه، كان (نيلسون) يلقي مراسيه في جبل طارق.

كان (نيلسون) قد اجرى الاتصال في اليوم السابق (يوم ١٨ تموز ـ يوليو) مع قوة (كولينغوود) ثم عملا معاً على فرض الحصار على (قادس). وتلقى (نيلسون) من (كولينغوود) المعلومات التي توضح له الموقف الاستراتيجي. ومما قاله كولينغوود إلى (نيلسون): «**بأنه يعتقد أن هدف نابليون هو الوصول الى ايرلنده. ومن أجل ذلك فان ـ فيللنوف ـ سيعمل الآن على زج اسطوله من أجل تحرير اسيطيل ـ فيرول ـ ليقوم بعدها باستدارة من حول (خليج الباسك) ليصل إلى (روشفورت) حيث يعمل على أخذ القوة الموجودة فيها. ويصبح باستطاعته عندها التقدم الى (اوشانت) بقوة ٣٤ سفينة حربية، تنضم اليها في اوشانت عشرين سفينة حربية اخرى. وليس من المعقول أن يكون هدف الحكومة الفرنسية متواضعاً أو صغيراً وهي تحشد له مثل هذه القوة الضخمة. وان رحلة ـ فيللنوف ـ الى الهند الغربية، لا هدف لها الا حشد القوة البحرية، وجمع ما هو متوافر منها هناك، وهي القوة التي برهن غيابها على قصور كبير كان يعترض تنفيذ المشاريع الفرنسية... واذن، فقد بات من المتوقع أن يشهد هذا الصيف أحداثاً ضخمة**»

هبط (نيلسون) إلى أرض الشاطىء في (جبل طارق) في يوم (٢٠ تموز ـ يوليو) وكان ذلك للمرة الاولى منذ ١٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٠٣. وفي هذا اليوم ذاته، بعث رسالة الى وزير البحرية (اللورد بارهام) قال فيها: «لقد انسحب كولينغوود الآن من الأقسام العليا من البحر الأبيض، وعلى هذا،

فاذا لم تصل حراقات ـ فرقاطات ـ روسية لتحل محله، فان باستطاعة الفرنسيين التحرك كما يشاؤ ون، لارسال قوافل جيوشهم الى سردينيا، أو صقليا، أو الموره، أو مصر. ومن أجل مجابهة هذا الموقف، فقد طلبت المرة بعد المرة ارسال المزيد والمزيد من الحراقات والمراكب الحربية».

إن تعرض (نيلسون) لذكر هذه المواقع يؤكد بأن (نيلسون) لا زال متمسكاً بأفكاره، على الرغم مما ذكره له (كولينغوود) في رسالته يوم ١٨ تموز ـ يوليو ـ والتي أوضح له فيها الجوانب الغامضة من الموقف. وعلى كل حال، فقد تلقى (نيلسون) برقية يوم ٣ آب ـ أغسطس ـ تتضمن أمراً بالتوجه بحراً الى (اوشانت) من أجل الانضمام الى قوة (كورنواليس).

حدثت خلال هذه الفترة ذاتها تطورات هامة على الصعيد السياسي، كان لها أثرها الكبير والعميق في توجيه مخططات نابليون ومشاريعه. فمن المعروف أن (بيت) عاد إلى رئاسة مجلس الوزراء البريطاني في ١٢ ـ أيار ـ مايو ـ ١٨٠٤. وكان هدفه الثابت هو اقامة تحالف جديد ضد نابليون. وكان مشروعه يعتمد في جزء منه على (اعادة التنظيم الدفاعي لانكلترا) ضمن اطار حلف يضم انكلترا وروسيا والنمسا والسويد ونابولي. وقد استمرت المفاوضات والمباحثات لاقامة هذا الحلف طوال سنة كاملة، واخيراً تم توقيع معاهدة بين انكلترا وروسيا في ١١ ـ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٠٥، تبعتها معاهدة مماثلة تم توقيعها بين روسيا والنمسا في ٩ آب ـ أغسطس. واقتربت (بروسيا) من دول التحالف، غير أنها رفضت توقيع معاهدة لمشاركتها في الحلف. وتضمنت بنود التحالف أن تقوم روسيا بوضع (١٨٠) ألف جندي في الميدان. وأن تضع النمسا بدورها (٣١٥) ألف جندي، وأن تقدم السويد (١٢) ألفاً. وتعهدت انكلترا بالمقابل أن تقدم معونة مالية سنوية مقدارها مليون وربع المليون جنيه استرليني لكل (١٠٠) ألف جندي يقدمهم الحلفاء للصراع ضد فرنسا واسبانيا. وبذلك أمكن للحلفاء حشد ما يزيد على اربعمائة ألف جندي.

عندما وصلت السفينة الحربية (كوريوس) الى خليج (بلايموث)[٧٠] توجه قبطانها (بتسوورث) مباشرة إلى لندن، حيث قابل فيها وزير البحرية (اللورد بارهام) يوم ٩ تموز ـ يوليو ـ ونقل له ملاحظاته وأعاد (اللورد بارهام) تقويم الموقف على اساس المعلومات التي أبلغه إياها (بتسوورث) وأرسل على الفور برقية الى (كورنواليس) طلب اليه فيها اصدار أوامره الفورية الى (مساعد الاميرال ـ ستيرلينغ) لرفع الحصار عن (روشفورت) ودعم (سير روبرت كالدر) الذي كان يحاصر (فيرول). كما كان على (كورنواليس) أيضاً إصدار أوامره الى (كالدر) فور انضمام هذا اليه: «**بمتابعة التقدم من غير أي تأخير أو اضاعة للوقت نحو رأس فينيستير**[٧١] **حيث يتحرك على بعد ٣٠ أو ٤٠ فرسخاً**[*] **فقط في اتجاه الغرب. ولمدة ستة حتى سبعة أيام**». وقد كان ذلك في منتصف شهر تموز ـ يوليو ـ حيث كان نابليون قد وصل حتى اكثر من نصف هدفه الاستراتيجي. وأصبحت كل الموانىء الفرنسية والاسبانية محررة من قبضة الحصار الانكليزي ـ باستثناء (بريست وقادس).

تجاوز (فيللنوف) في تحركه جزر الأزور في يوم ٢ تموز ـ يوليو ـ. واقترب من (رأس فينيستير) في يوم ٢٢ تموز ـ يوليو ـ. وسط محيط من الضباب الكثيف. وكان من المحتمل له أن ينجح في المرور من بين سفن (كالدر) البالغ عددها (١٥) سفينة حربية، وأن يحقق الاتصال مع (غانتوم) في (بريست) من غير أن تكتشف السفن البريطانية تحركه. غير أن الضباب لم يلبث أن انقشع مع اقتراب فترة الظهيرة، واستطاعت احدى حراقات (فرقاطات) ـ كالدر ـ أن تحدد مواقع سفن الاسطول الفرنسي. وحدث اشتباك غير حاسم بين قوة كالدر والاسطول الفرنسي في الساعة (١٧٠٠) أصيبت خلاله سفينتين من سفن (فيللنوف) باصابات خفيفة. وعلى الرغم

---

(٧٠) بلايموث: (PLYMOUTH) مدينة انكليزية في مقاطعة (ديفون: DEVON:) ولها خليج حربي ضخم.

(٧١) رأس فينيستر: (CAP- FINISTERRE) نتوء أرضي يقع إلى أقصى الشمال ـ الغربي من اسبانيا.

(*) الفرسخ: (LEAGUE) قياس (بحري خاصة) يتراوح بين (٢,٤) و(٤,٦) من الميل.

من سفن الاسطولين كانت متقابلة ويشاهد بعضها البعض الآخر - في يوم ٢٣ تموز - يوليو - فانه لم يحدث بينها أي اشتباك آخر. وعندما أبحر (كالدر) في الايام التالية، واتجه نحو الشمال للانضمام الى (كورنواليس)، فان (فيللنوف) لم يفعل شيئاً اكثر من جمع سفنه والاتجاه بها نحو (خليج فيغو)[٧٢] حيث وصل الى هناك يوم ٢٨ تموز - يوليو -. ثم ابحر بعدها الى (فيرول) فوصل الى خليجها يوم ١ - أب - أغسطس - ١٨٠٥.

كان التأثير النفسي - او المعنوي - لهذه العملية، تأثيراً حاسماً على (فيللنوف). إذ فقد فيها بقية الثقة التي كان يحاول المحافظة عليها بقدرة اسطوله. وما لبث أن كتب في يوم ٦ أب - أغسطس - ما يلي: «كان قادة سفننا في الضباب يعملون من غير أية خبرة في الاساليب التعبوية - التكتيكية - لقتال الاسطول. ولم تكن لديهم أية فكرة اكثر من اتباع السفينة التي تتقدمهم. وها نحن نشكل تجمعاً مضحكاً لاوروبا» ويظهر بوضوح أن هذه العملية قد شلت قدرة (فيللنوف) شللاً تاماً.

تلقى (فيللنوف) لدى وصوله الى (فيرول) برقية من (نابليون) تحمل تاريخ ١٦ تموز - يوليو -. وتتضمن أمراً إليه برفع الحصار عن (فيرول) والقيام بمناورة «تجعل منا سادة على مضيق دوفر» سواء تطلبت هذه المناورة توحيد القوى البحرية الموجودة في (روشفورت) و (بريست) أو بضم اسطول (روشفورت) وحده، أو اسطول (بريست) وحده. وتجاوز بعد ذلك ايرلنده واسكوتلنده بهدف ضم الاسطول الهولاندي في (تيكسل) مما يضاعف من قوة الاسطول. وبالاضافة إلى ذلك، فانه اذا ما عجز (فيللنوف) عن اتمام هذا الواجب، بسبب ظروف القتال أو لأي سبب آخر، فان عليه عدم

---

(٧٢)خليج فيغو: (VIGO- BAY) خليج يقع على المحيط الأطلسي في اسبانيا، وهو يحمل اسم المدينة المجاورة له (فيغو) من إقليم (بونتيفيدرا: PONTEVEDRA) ويذكر أن سفن أسبانية (من طراز الغليون - GALIONS) كانت محملة بالذهب والفضة قد غرقت في مياه هذا الخليج سنة ١٧٠٢، وقد أغرقتها السفن الانكليزية - الهولاندية.

اللجوء إلى (خليج فيرول) مهما كانت الظروف، وانما عليه التقدم حتى (قادس).

ارتكب نابليون خطأ قاتلاً عندما أصدر أوامره الاخيرة الى(فيللنوف) الذي كان يعاني معاناة مريرة من وضعه الخاص؛ لا سيما وأن الوصول الى قادس، والابتعاد قدر المستطاع عن بريست، كان متوافقاً مع الفكرة المهيمنة على عقل (فيللنوف). وعلى هذا، وبما أنه منع من دخول خليج (فيرول) أو التوقف فيه، فقد ترك فيه (فيللنوف) ثلاث سفن مصابة بأعطال، ثم تابع سيره حتى وصل (كورونا)[٧٣] حيث دعم قوته البحرية بضم (١٤) سفينة حربية كانت موجودة هناك.

عندما انسحب الاميرال (ستيرلينغ) من (روشفورت) بهدف دعم (كالدر) وذلك في يوم ١٧ تموز ـ يوليو ـ قام مساعد الاميرال (آلماند) الذي حل محل (ميسييسي) فتسلل من (روشفورت) بهدف الانضمام الى قوة (فيللنوف) والعمل تحت قيادته (وذلك في اليوم ١٣ ـ آب ـ أغسطس). ولكن (دوكريه) لم يعلم (فيللنوف) بتحرك (آلماند). فكان من نتيجة ذلك حدوث فشل ذريع بلغ ذروته في ذلك اليوم (يوم ١٣ آب ـ أغسطس ـ ١٨٠٥).

كان (فيللنوف) قد أبحر في ذلك اليوم، وشاهد بعض الحراقات (الفرقاطات) وهي ترتسم على سطح الماء، فافترض بأنها حراقات انكليزية، فقام بتعديل خط سيره، واتجه نحو الجنوب بهدف تجنب الاصطدام بها. وكانت هذه الحراقات التابعة لقوة (آلماند) تقوم بالبحث عنه للانضمام اليه. فلو أتيح للاميرال (فيللنوف) الالتقاء بهذه القوة لزادت أعداد قطع اسطوله على (٣٤) سفينة حربية، ولكان باستطاعته التوجه شمالاً بدلاً من السير جنوباً، ولتحولت مسيرة الأحداث في مصلحته. ذلك أن (كورنواليس) كان

---

(٧٣)كورونا: (LA COROGNE) وبالاسبانية (CORUNA) مدينة اسبانية في إقليم (غاليسيه: GALICE) ولها ميناء حربي ضخم، اشتهر منذ القدم لأهمية موقعه على المحيط الأطلسي.

قد قسم قوة اسطوله في يوم ١٦ـ آب ـ أغسطس ـ إلى مجموعتين: أرسل منها مجموعة مكونة من (١٨) سفينة حربية بقيادة (كالدر) إلى (فيرول) واحتفظ تحت قيادته بالمجموعة الثانية المكوّنة من (١٦) سفينة. ونتيجة لذلك، فلو سار (فيللنوف) شمالاً، منفذاً بذلك تعليمات (نابليون) وأوامره، لكانت أمامه فرصة جيدة للتملص من (كالدر) ومراوغته، ولربما أتيحت له فرصة رفع الحصار عن (بريست). وهذا ما دفع نابليون للكتابة: «**أية فرصة أضاعها فيللنوف بتوجهه جنوباً مبتعداً عن بريست، ولقد أضاع بذلك حرية العمل فبات أسيراً لخصمه بعد أن كان قادراً على أسر (كالدر) والانقضاض على كورنواليس، أو تدمير العشرين سفينة انكليزية بقوة أسطوله التي تضم ثلاثين سفينة. ولو تم له ذلك، لحصل على التفوق الحاسم**».

وبعد، فقد يكون ما ذكره (نابليون) صحيحاً من الناحية النظرية، غير أن هذا القول يفتقر إلى الدقة من الناحية العملية، إذ هناك شك كبير في قدرة (فيللنوف) على مجابه (كورنواليس). إذ كان لدى هذا الأخير (١٠) سفن من ذات (الطوابق الثلاثة) وكانت القدرة القتالية لهذه السفينة ـ بالنسبة لأيام استخدامها ـ تعادل قدرة سفينتين من ذات (الطابقين).

تابع (فيللنوف) تحركه نحو الجنوب، ودخل خليج(قادس)في يوم ٢٠ آب ـ أغسطس ـ. وهناك، حاصره (كولينغوود) بثلاث سفن حربية، وتلقى (كولينغوود) دعماً في يوم ٢٢ آب ـ أغسطس ـ حيث انضم إليه(سير ريتشارد بيكرتون) ومعه أربع سفن حربية أخرى. ثم وصل (كالدر) يوم ٣٠ ـ آب ـ أغسطس ـ ومعه (١٨) سفينة حربية، فانضم إلى القوة البريطانية القائمة على حصار القوة الفرنسية.

وصل (نابليون) إلى (بولوني) في يوم ٣ ـ آب ـ أغسطس ـ. وكان عامل الوقت يضغط عليه بكل ثقله. إذ كانت كافة المؤشرات تؤكد له أن قوى التحالف أخذت في تنظيم قدراتها على مؤخراته: إذ أخذت النمسا في

حشد قواتها في (فينيتيا)(٧٤) و(التيرول)(٧٥) مع إجراء تعبئة عامةللميليشيا الأوروبية. وعلم (نابليون) في يوم ١٣ ـ آب ـ أغسطس ـ بأمر مجابهة (فيللنوف) مع (كالدر). فأرسل تهنئة إلى (فيللنوف) وكتب له في الوقت ذاته أن يضم قوة (آلماند) إليه. وأن يكتسح كل قوة بريطانية تجابهه، ويدمج كل قطع الأسطولين الفرنسي والاسباني، ثم يتوجه إلى القنال الانكليزي. كما كتب نابليون إلى (دوكريه) رسالة تذمر فيها من التحرك البطيء للأميرال (فيللنوف). ثم كتب في يوم ٢٢ آب ـ أغسطس ـ رسالة إلى (غانتوم) أعلمه فيها بأن (فيللنوف) هو في طريقه للانضمام إليه. وأنه عندما يصل، فيجب عدم إضاعة ولو يوم واحد، بل يجب التحرك فوراً إلى القنال. وذلك «**انتقاماً للاهانات التي وجهتها انكلترا إلى فرنسا طوال ستة قرون**». وفي هذا اليوم ذاته، عاد فكتب إلى فيللنوف من جديد، موجهاً رسالته إلى (بريست) وفيها: «**إني على يقين بأنكم وصلتم الآن إلى ـ بريست ـ. فاركبوا البحر، ولا تضيعوا لحظة واحدة، واقتحموا القنال باسطولنا الموحد. إن انكلترا هي لنا. نحن على استعداد. لقد ركب جنودنا البحر، سينتهي كل شيء إذا ما أمكن لكم الوصول خلال ثمان وأربعين ساعة**».

لا زال نابليون جاهلاً بأن (فيللنوف) كان حتى هذه الفترة محجتزاً في قادس. ولهذا فقد كتب ـ أي نابليون ـ إلى وزيره (تاليران) في اليوم التالي: «**كلما أمعنت التفكير في الموقف الأوروبي، كلما تزايدت قناعتي بضرورة اتخاذ إجراء حاسم وبأسرع ما يمكن. فإذا ما نفذ (فيللنوف) تعليماتي، وقاد قوته المكونة من (٣٤) سفينة حربية، ثم ضم إليه قوة بريست، واقتحم القنال،**

---

(٧٤) فينيتيا: (VENETIE) إقليم يقع شمال ـ شرق إيطاليا. وكان يشكل الحدود القديمة لجمهورية فينيسيا. وألحق جزء منه بإيطاليا سنة ١٨٦٦. ثم الحقت بقية الأجزاء (مثل ترنتيه وبولزانو وترييستا وايستري وكارينرووغوريزيا وزارا) بايطاليا سنة ١٩١٩. ثم أعلنت ترييستا ومنطقها (في حدود ٧٠٠ كيلومتر مربع) منطقة حرة في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

(٧٥) التيرول: (TYROL- OU- TIROL) بلد ألبي مقسم بين النمسا وسويسرا وايطاليا. ويحمل كل قسم اسم القطر الذي يتبعه (التيرول النمساوي) و(التيرول السويسري) و(التيرول الايطالي).

فعندها سيكون أمامنا فسحة كافية من الوقت: وسأكون سيداً على انكلترا. أما إذا لم يتحقق ذلك، فسأزيل معسكري من بولوني، وأسير إلى فيينا». وأخيراً! اتخذ نابليون قراره لتحريك الجيش المتمركز في (بولوني) للعمل ضد النمسا. ثم كتب إلى (دوروك) في يوم ٣١ ـ آب ـ أغسطس: «يتحرك الجيش بأقصى سرعته) وسأكون مستعداً في يوم ٢٧ أيلول ـ سبتمبر ـ. لقد أسندت قيادة جيش إيطاليا إلى ـ ماسينا ـ. أما النمسا فإنها تعمل بغطرسة ووقاحة، وقد ضاعفت من استعداداتها. ودخل اسطولنا خليج قادس، واحفظ ذلك سراً إذ لا يعرف أحد بذلك سواك. اجمع كافة الخرائط التي تستطيع جمعها عن مناطق (الدانوب) و(ماين) و(بوهيميا) واحمل لي تنظيم الجيشين الروسي والنمساوي». ثم غادر نابليون (بولوني) يوم ٢ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ. وأصبح (جيش بولوني) يحمل اسم (الجيش الكبير) الذي توجه لعبور (الراين) بدلاً من أن يتوجه لعبور القنال الانكليزي.

لقد سبقت الإشارة إلى أن (نيلسون) كان قد ركب البحر واتجه نحو الشمال في يوم ٣ آب ـ أغسطس ـ حتى إذا ما وصل إلى (اوشانت) يوم ١٥ ـ آب ـ أغسطس ـ قام بأداء التحية لسفينة القيادة التي كانت ترفع علم (كورنواليس). وتلقى في الوقت ذاته برقية تطلب إليه متابعة التقدم بسفينته (فيكتوري) إلى (بورتسموث) فوصلها، وألقى مرساته فيها يوم ١٨ آب ـ أغسطس ـ. أمضى (نيلسون) أياماً في انكلترا، متنقلاً ما بين (لندن) و(مارتون) أو (ميرتون) حتى يوم ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٠٥ حيث وصلته برقية من قائد الحراقة (أوريالوس) وهو (القبطان بلاكوود) تفيد بأن (فيللنوف) قد دخل خليج قادس. فقطع (نيلسون) إجازته القصيرة وأرسل بمتاعه الثقيل إلى (بور تسموث) في يوم ٥ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ. ووصل هو إلى هناك يوم ١٤ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ وفي اليوم التالي، أكملت سفينته (فيكتوري) استعداداتها، ورافقتها الحراقة (أوريالوس) في طريقها إلى عرض البحر، ووصل نيلسون إلى موقع (كولينغوود) وانضم إليه يوم ٢٨ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ حيث عاد وتولى قيادة أسطوله.

كان اليوم التالي (وهو يوم ٢٩ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٠٥) مصادفاً لاحتفال نيلسون بعيد ميلاده السابع والأربعين. وقد كتب بهذه المناسبة رسالة إلى صديق له (لم تحمل الرسالة اسم هذا الصديق) وجاء فيها: «شعرت بأحلى الأحاسيس والانفعالات في حياتي وأنا أقابل من التقيت بهم في حفل الاستقبال لدى عودتي إلى الأسطول. لقد نسي الضباط في غمرة حماستهم وهم يؤدون لي التحية، رتبتي وأنا قائد الأسطول. وقد أقبلوا من كل السفن للاحتفال على متن سفينتي».

٤ ـ نيلسون ـ وإدارة المعركة

جمع (نيلسون) قادة سفنه، وشرح لهم مخطط المعركة الذي وضعه عندما كان في (ميروتون) والذي تضمن ما كان يطلق عليه عادة (مذكرته السرية). ولكن، وقبل التعرض لها، قد يكون من المناسب القاء نظرة عجلى على مخطط أسبق، كان قد فكر به، ووضعه، عندما كان في طريقه إلى الهند الغربية. ذلك لأن استقراء ملامح المخططين يكشف بصورة أوضح العامل الذي أبرز (نيلسون) وميزه عن بقية أقرانه من قادة البحر الذين عاصروا أيامه، وعاشوا معه فترة حياته القيادية.

يمكن في الواقع تلخيص فكرة المذكرة الأولى بالكلمات التالية (البحث عن المعركة الحاسمة والقريبة ـ أو الالتحامية). ومن أجل ذلك، فقد عمل نيلسون باستمرار على حث مرؤوسيهم ومطالبتهم بالعمل من غير انتظار للأوامر. وهدفه من ذلك هو دفعهم للعمل بمبادآتهم الشخصية ـ الخاصة ـ. على أن يتم ذلك بانتظام ومن غير اضطراب يعرض المعركة للخطر، الأمر الذي كان يفرض على الضباط، قادة السفن، أن يكيفوا أساليبهم مع أسلوب هجوم القائد الأعلى. ولم يكن نيلسون يقاتل من أجل تنفيذ مخطط، وإنما كان يضع مخططاً من أجل القتال. والفارق بين الحالتين كبير جداً.

إن الإبداع، أو التجديد، في مذكرة نيلسون، لايكمن في (**أساليب الهجوم**) والتي ذكر منها اثنان فقط لمجابهة المتطلبات التي قد تتغير بتحول ظروف المعركة. وإنما تكمن في (**حرية العمل**) التي كان يمنحها لمرؤوسيه من أجل تنفيذ المعركة. ولقد مارس (نيلسون) ذاته، أقصى حدود حرية العمل وهو مرؤوس في معركة (سانت فانسان) وكان يتوقع من قادة سفنه (ربابنة) أن يكيفوا أنفسهم حتى يكونوا نماذج مشابهة له. وقد كان ذلك مناقضاً تماماً لأسلوب نابليون في إدارة الحرب، إذ كـان من المعروف عن نابليون أنه لم يكن يتساهل في أية مبادأة يقوم بها قادته ـ مارشالاته ـ في حين كان نيلسون يريد لقادته أن يكونوا جميعاً على غراره (نيلسونيين). في تفكيرهم وعملهم. ولقد اقترن ذلك بطبيعة نيلسون المشاكسة. والباحثة عن القتال، مما ساعد على تحويل مبادأة نيلسون إلى مبادأة اجماعية يشترك فيها كافة مرؤوسيه، وقد كان ذلك مناقضاً للانضباط البحري الصارم في تلك الأيام. غير أن هذا التناقض هو الذي جعل من الأميرال (نيلسون) نموذجاً أعلى للأميرال البريطاني المحارب.

لقد ناقش (نيلسون) مذكرته السرية مع الأميرال (سير ريتشارد كيت) في بداية الأمر، وذلك عندما كان في (ميرتون). وقد اعتمدت المناقشة على فرضية أن عدد السفن الحربية التي يتولى نيلسون قيادتها هي (٤٠) سفينة. يقابلها لدى (فيللنوف) (٤٦) سفينة حربية. وهذا الأمر يجعل من المحال على (نيلسون) وضع كل سفنه في تشكيل القتال من غير إضاعة أو هدر للوقت. ولهذا، وحتى يتم توفير الوقت قدر المستطاع، فقد تقرر تنظيم الأسطول على شكل رتلين (خطين) يضم كل رتل منها (١٦) سفينة حربية، ويبقى هناك (٨) سفن تعمل كقوة متقدمة، أو يتم الاحتفاظ بها كقوة احتياطية. وتقرر أيضاً، اختصاراً للوقت، أن يكون أمر (ركوب البحر) هو (أمر القتال). كما تقرر أن يعمل كل رتل بصورة مستقلة تماماً بهدف الافادة من الفرص المتاحة للاشتباك حتى أقصى درجة

ممكنة، على أن يكون الرتل الأول بقيادة (نيلسون) ويعمل الرتل الثاني بقيادة (الأميرال كولينغوود) الذي كان عليه ممارسة دوره الكامل في قيادة رتله، بما في ذلك اختيار اتجاهه، وتنظيم التشكيل القتالي.

لقد حدد (نيلسون) أسلوب الهجوم وطريقته على النحو التالي: «يقوم كولينغوود خط مؤخرة العدو الذي يضم (١٢) سفينة حربية، بينما يتولى نيلسون ذاته قيادة الهجوم ضد مركز ثقل رتل العدو ـ في الوسط ـ بهدف منعه من مهاجمة كولينغوود، ووضع السفن في الوقت ذاته بين وسط تشكيل العدو وبين مقدمته، وذلك قبل أن تتمكن المقدمة من الالتفاف للوصول إلى مؤخرة تشكيل العدو ودعم معركتها. وكان على قوة المقدمة لرتل نيلسون دفع سفينتين أو ثلاث سفن أو أربع ـ في الوقت ذاته نحو وسط تشكيل قوة العدو ـ مركز ثقله ـ بهدف ضمان الابقاء على الاتصال مع القائد الأعلى ـ نيلسون ـ ودعمه وحمايته باعتباره الموجه والقائد والمصدر المعنوي لقوات (اسطوله). وقد كتب (نيلسون) بهذا الصدد ما يلي: «**لا بد من ترك بعض الأمور للحظ ـ أو لمصادفات الحرب ـ إذ من المحال ضمان كل الأمور في صراع البحر. وقد تأتي طلقة مدفعية لتقذف بصاري بعض السفن، أو تقتل بعض الأصدقاء وهم في مراكز قياداتهم (قمراتهم)، وكذلك الأمر بالنسبة للأعداء، غير أنني اتطلع إلى النصر بثقة تامة وذلك قبل أن تتمكن مقدمة العدو من اللحاق بمؤخرته، وعندها سيكون باستطاعة الأسطول البريطاني مجابهة السفن العشرين لأسطول العدو بكفاءة تامة، أو العمل على مطاردتها إذا ما حاولت التملص من المعركة والانسحاب**».

تثير فكرة نيلسون ذكريات معركة (لوكترا)[٧٦] التي قادها (ايبا

---

(٧٦) لوكترا: (LEUCTRES) مدينة في بيوتي: BEOTIE القديمة، حيث كانت الإمارة اليونانية التي اتخذت من طيبة (THEBES) عاصمة لها. واشتهرت (لوكترا) بسبب وقوع المعركة إلى جوارها.

مينونداس)[٧٧]. ففي تلك المعركة قام الجناح الأيمن (للطيبيين)[٧٨] بتهديد الجناح الأيسر للقوات (الاسبارطية) في حين قام الوسط بتثبيت وسط الأسبارطيين على الأرض. بينما كان الجناح الأيسر للطيبيين يدمر الجناح الأيسر للاسبارطيين[٧٩] وفي معركة الطرف الأغر، وضع (نيلسون) مخططه على أساس عزل معركة وسط الأسطول الافرنسي ـ الاسباني ومقدمته عن معركة المؤخرة، ولكن هذا العزل لم يكن عن طريق التهديد ـ كما حدث في لوكترا ـ وإنما عن طريق الهجوم، وهذا مما يتيح للأميرال (كولينغوود) فرصة تدمير المؤخرة ـ التي كان يقابلها الجناح الأيسر في معركة (لوكترا). ولا ينتقص من قدر فكرة (ايبا مينونداس) أو يحط من قيمتها انها فكرة قديمة جداً، فقد لجأ (فريدريك) الكبير على إعادة تطبيقها في معركة (لوثن)[٨٠] كما طبقها نيلسون في معركة (الطرف الأغر). فالأفكار الأساسية في الحروب تعود للظهور وهي تنتقل عبر الأزمنة، ومن جيل إلى جيل.

كتب (نيلسون) رسالة إلى (الليدي هاميلتون) تعرض فيها للمؤتمر الذي عقده مع قادة سفنه (ربابنته) وجاء في الرسالة ما يلي: «. . . **عندما شرحت لهم ـ لمسة نيلسون ـ أصابتهم صدمة كمثل صدمة التيار**

---

(٧٧) ايبامينونداس: (EPAMINONDAS) قائد طيبة ورجل دولتها. ولد سنة ٤١٨ ق.م. تقريباً، وهو أحد الزعماء الديموقراطيين في طيبه، انتصر على خصومه في معركة (لوكترا) و(مانتينيه) وأصيب في معركته الأخيرة (مانتينيه) بجراح قاتلة (سنة ٣٦٢ ق.م.) ولم يلبث أن قضى نحبه، وزالت عن طيبه (بزواله) ما كان لها من المجد والعظمة.

(٧٨) الطيبين: (THEBES) نسبة إلى الإقليم الذي يعرف اليوم باسم (ثيفا: THIVA) والذي كانت عاصمته (طيبه) وهي غير مدينة طيبة المصرية في أعالي النيل. واشتهرت باسطورة (اوديب).

(٧٩) الاسبارطيين: نسبة إلى أسبارطة (SPARTES) أو (LACEDEMONE) مدينة قديمة من المدن اليونانية تقع على نهر (اوروتاس: EUROTAS وقد اشتهرت اسبارطة بتربيتها الصارمة وتقاليدها الارستقراطية. وخاضت صراعاً مريراً ضد اليونان، ولم يبق منها اليوم غير الأطلال.

(٨٠) لوثن (LEUTHEN) مدينة في بولونيا (سيليزيا). كانت من قبل مدينة ألمانية، وفيها انتصر فريدريك الكبير على النمساويين (سنة ١٧٥٧م).

الكهربائي. . . . وذرف بعضهم الدموع. وانطلق الجميع يرددون: إنها فكرة جديدة. . . إنها فريدة.ـ إنها بسيطة وغير معقدة. وأخذ القادة من رتبة أميرال وحتى أصغر الرتب يقولون: يجب تحقيق النجاح، فيما لو أتيحت لنا فرصة اللقاء بهم! إنك يا سيدي محاط بأصدقاء يستوحون منك الثقة ويستمدون العزم. . . ». عمل (نيلسون) على توزيع (مذكرته السرية) وتعميمها مكتوبة في يوم **٩** تشرين الأول ـ اكتوبر ـ **١٨٠٥**. كان (فيللنوف) في هذه الفترة، يعاني وهو (في قادس) أشد أنواع الضيق التي عرفها في حياته. فقد كانت خزانته المالية خاوية، وكان مخزونه البحري فارغاً، ومواده التموينية مستنفذة، وكان من الصعب عليه الحصول حتى على ما يحتاجه من العتلات (المخول ـ جمع مخل). وإلى جانب ذلك كان هناك ألفين من جنوده محرومين من الملجأ ـ أو المسكن ـ بالإضافة إلى (**١٧٣١**) مريضاً يحتاجون للعناية الطبية. وزاد الموقف سوءاً بتكرر الصدامات بين الضباط والجنود الفرنسيين وأقرانهم من الاسبانيين، وحدوث مشادات فيما بينهم، الأمر الذي دفع (فيللنوف) إلى رفع رسالة إلى (دوكريه) ضمنها تذمره من مجموعة هذه الأوضاع، وذلك في يوم **٢** أيلول ـ سبتمبر ـ. وعلى الرغم من كل ما عاناه (فيللنوف) فقد بعث رسالة أخرى يوم **٢٤** أيلول ـ سبتمبر ـ ضمنها تقريره الذي يفيد بأنه استطاع شحن سفنه بالامدادات والمواد التموينية الكافية لمدة ستة أشهر، وأنه بات مستعداً لركوب البحر.

تخلى نابليون عن كل فكرة لغزو انكلترا. غير أنه وضع مخططاً (للبائس فيللنوف ـ كما كان يسميه نابليون). وأرسل له تعليماته من (سانت كلود)[٨١] في يوم **١٤** ـ أيلول ـ سبتمبر ـ وهي كما يلي: «تقرر القيام بعملية تشتيتية كبرى عن طريق توجيه قواتنا البحرية إلى البحر الأبيض المتوسط،

---

(٨١) سانت كلود: (SAINT- CLAUD) بلدة في مقاطعة (السين والواز: SEINE- ET- OISE) إقليم فرساي. وتقع على نهر السين. تشتهر بحقولها الجميلة وحدائقها وملاعب فروسيتها.

وحشدها في خليج قادس. ونريد تعريفكم بما نعتزم تنفيذه على النحو التالي:

- تغتنمون أول فرصة لقيادة الأسطول المشترك، والتوجه به بحراً، والتوغل في ذلك البحر ـ.
- تتوقفون الوقفة الأولى في (قرطاجنة) لتضموا اليكم القوة البحرية الاسبانية الموجودة في خليجها.
- تتقدمون بعدئذ إلى (نابولي). وتنزلون على الساحل الوحدات التي تحملونها معكم، والتي يجب عليها الانضمام إلى جيش (سان سير) والعمل تحت قيادته.
- يبقى الأسطول بقيادتكم خارج مياه نابولي طوال المدة التي ترون أنها ضرورية من أجل الحاق أكبر الخسائر الممكنة بقوات العدو ـ البحرية ـ وتعترضون القافلة التي يعتزم إرسالها إلى (مالطا).
- يعود الأسطول إلى ميناء (طولون) بعد تنفيذ هذه الحملة بهدف القيام بتأمين الإمدادوالتموين وإجراء أعمال الصيانة لقطع الأسطول.
- نريد منكم أن تقوموا بمهاجمة العدو كلما التقيتم بقوات له تتفوقون عليها، وحيثما كان ذلك، وأن تقوموا بذلك من غير تردد، وفقاً للقرار الذي تتخذونه.
- لا بد من القول إن النجاح في هذه العمليات يتعلق أساساً بمغادرتكم الفورية لخليج قادس».

أرسل الأمبراطور نابليون بعد ذلك بيومين تعليمات إلى وزير البحرية الفرنسي (دوكريه) يطلب إليه فيها تعيين (روزيلي) مكان (فيللنوف). غير أن (دوكريه) لم يقم بتنفيذ هذه التعليمات، ولم يعلم (فيللنوف) بها. كما أن (روزيلي) توجه إلى مدريد، فوصلها يوم ١٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٠٥. وبعد ذلك بستة أيام (أي في يوم ١٦ تشرين الأول ـ اكتوبر). تقرر الأمر النهائي للمعركة، وتضمن تقسيم اسطول (فيللنوف) إلى ثلاث مجموعات مقاتلة تتكون المجموعة فيها من سبع سفن حربية، وهي على

النحو التالي: المجموعة الثانية، وتعمل مقدمة للأسطول تحت قيادة مساعد الأميرال آلافا ـ وسفينة قيادته هي (سانتا آنا). المجموعة الأولى وتعمل في الوسط ـ المركز ـ بقيادة فيللنوف ذاته وسفينة قيادته هي (بوسنتور). أما المجموعة الثالثة فتعمل على المؤخرة بقيادة مساعد الأميرال دومانوار وسفينة قيادته هي (دوغاي ـ تروين). وتبقى هناك قوة احتياطية بقيادة الأميرال غرافينا، وسفينة قيادته هي (برانسيب دو آستورياس).

كان (فيللنوف) قد أخذ في إكمال استعداداته النهائية منذ اليوم الأول من تشرين الأول ـ اكتوبر ـ وذلك بهدف ركوب البحر يوم ٧ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ. غير أن هبوب الرياح وتغير اتجاهها أعاقه عن الخروج إلى البحر في الموعد الذي كان يريده، واضطر إلى البقاء في خليج قادس لمدة عشرة أيام. وعقد (فيللنوف) مؤتمراً لقادته في يوم ٨ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ شرح لهم فيه فكرته عن القتال في المعركة المقبلة. وقال (فيللنوف) بأنه يعتزم تقسيم أسطوله المكون من (٣٣) سفينة حربية إلى مجموعتين: مجموعة قتال تضم (٢١) سفينة تعمل تحت قيادته الشخصية، ومجموعة احتياط من (١٢) سفينة تعمل تحت قيادة الأميرال (غرافينا) تتحرك في اتجاه هبوب الريح بالنسبة للمجموعة السابقة. وشرح (فيللنوف) بدقة مذهلة الأساليبة التعبوية ـ التكتيكية ـ التي قد يستخدمها العدو. وكان مما قاله:

«لن يلجأ أسطول العدو إلى تشكيل خط للمعركة مواز لخط تشكيل سفن اسطولنا ـ المشترك ـ. إن ـ نيلسون ـ سيحاول اختراق خط تشكيل سفننا وتمزيقه، مع تطويق مؤخرتنا، والتحكم بسفننا عن طريق زج مجموعات من سفنه ضد سفننا لعزلها وتدميرها بقدر ما يسمح له الموقف بذلك. فما هو الأسلوب المفضل لمجابهة مثل هذا الهجوم؟ لا شيء! ذلك لأنه يعرف بأن قادة سفنه (ربابنته) هم وحدهم الذين تتوافر لهم الكفاءة لتشكيل خط متقدم علينا. وكل ما يمكن لنا عمله هو الافادة من اتجاه الريح للانقضاض على العدو، والاشتباك معه في قتال سفينة ضد سفينة.

وإذا ما كان اتجاه الريح مناسباً، فقد تتوافر فرصة تشكيل خط قريب من المقدمة، وانتظار قيام العدو ببدء الهجوم» وعلى كل قبطان اتخاذ تدابير الحيطة لحماية سفينته».

كان على (فيللنوف) دمج السفن الاسبانية والفرنسية في تشكيل واحد، تنفيذاً لتعليمات نابليون وأوامره. وكانت هذه السفن تضم: سفينة ذات أربعة طوابق (سانتيسميا ترينيداد) مسلحة بمائة وواحد وثلاثين مدفعاً وهي أكبر سفينة عائمة عرفت حتى ذلك التاريخ. وثلاث سفن من ذات الطوابق الثلاثة. (سفينتان مسلحتان ب. **١١٢** مدفعاً وسفينة مسلحة بمائة مدفع). وست سفن يضم تسليح كل واحدة منها (**٨٠**) مدفعاً. و(**٢٢**) سفينة يضم تسليح كل واحدة منها (**٧٤**) مدفعاً وسفينة تضم (**٦٤**) مدفعاً بالإضافة إلى (**٧**) حراقات - فرقاطات - وبعض السفن الشراعية الخفيفة (طرادات). وكانت هذه السفن تحمل على أجنابها (**٢٦٢٦**) مدفعاً، من المدافع القصيرة، كما كانت تحمل قوة من (**٢١,٥٨٠**) ضابطاً وجندياً. وكانت الكتائب المنقولة قد سحبت من حامية قادس، وضمت إليها (كتيبة أفريقيا)(*) و(كتيبة سوريا)(**) وكلتاهما من الكتائب التي قاتلت في (الأرماد الاسبانية).

كان من المفروض أن يبلغ عدد قطع الأسطول البريطاني (**٣٣**) سفينة حربية، أيضاً. ولكن لم تكد تمر فترة طويلة على استلام نيلسون لقيادة الأسطول، حتى صدرت الأوامر إلى مساعد الأميرال (توماس لويس) بتسلم قيادة (**٦**) سفن حربية، والانطلاق بها بمهمة مرافقة قافلة تجارية كانت متوجهة إلى (مالطا). وهكذا هبط عدد السفن التابعة لقيادة نيلسون إلى (**٢٧**) سفينة حربية. وكانت هذه السفن تضم: (**٣**) سفن من ذات الطوابق الثلاثة والمسلحة بمائة مدفع. و(**٤**) سفن يشتمل تسليح الواحدة منها على

(*) كتيبة أفريقيا (REGIMENTO DE AFRICA) واسمها الرسمي (TERICO DE SICILIA)

(**)كتيبة سوريا (REGIMENTO DE SORIA) واسمها الرسمي: (TERCIO DE SORIA)

(٩٨) مدفعاً وكذلك (٢٠) سفينة ذات طابقين. واحدة منها مسلحة بثمانين مدفعاً، و(١٦) سفينة يشتمل تسليح كل واحدة منها على (٧٤) مدفعاً، وثلاثة منها يشتمل تسليح كل واحدة على (٦٤) مدفعاً. كما كان الأسطول يضم (٤) حراقات ومركب شراعي بصاريين وزورق استطلاع (بصاري واحد). وكان الأسطول يحمل (١٦,٨٢٠) ضابطاً وجندياً و(٢١٤٨) مدفعاً من المدافع القصيرة الموزعة على السطح والأجناب.

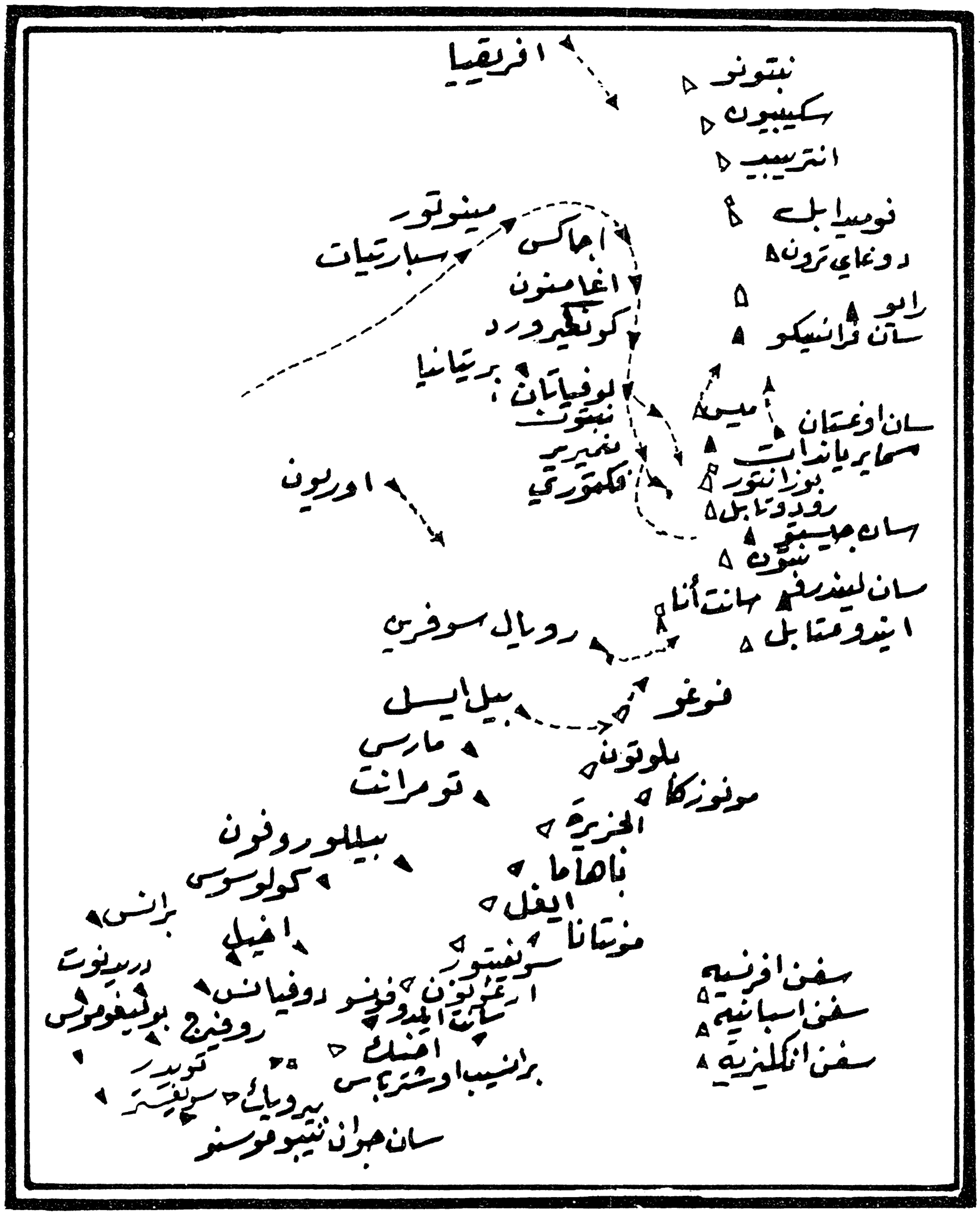
عمل (نيلسون) على اسقاط مخططه الأساسي للمعركة، بسبب غياب قوة (توماس لويس) واستبدله بمخطط جديد يتم بموجبه تقسيم الأسطول إلى مجموعتين عوضاً عن **ثلاث مجموعات**: المجموعة المتقدمة (أو مجموعة العاصفة) وتضم **١٢** سفينة حربية تعمل تحت قيادته المباشرة (في سفينة فيكتوري) ومجموعة المؤخرة (أو مجموعة الحماية) وتضم **١٥** سفينة تعمل تحت قيادة (كولينغوود) ومقرها في السفينة (صاحبة الجلالة). وكان ذلك أو ل تعديل طرأ على مخطط (المذكرة السرية) ثم تبع ذلك تعديلات أخرى أفسحت المجال، منذ ذلك التاريخ، للكثير من الايضاحات والتفسيرات التي يمكن اعتمادها لمعرفة ما كان يفكر فيه (نيلسون) عندما خاض معركة (الطرف الأغر). لقد كان هدف (نيلسون) هو كسب نصر حاسم، والاستيلاء على **٢٠** سفينة من سفن العدو أو إغراقها. وذلك هو ما قاله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «**لقد راهنت على عشرين سفينة**» وقد تأكد (نيلسون) من خلال ما تبرزه مذكرته السرية، بأن أسلوب الالتحامات القديم والذي يعتمد على التنظيم الخطي (الرتل) الموازي لخط سفن العدو، هو أسلوب غير حاسم بصورة عامة، نظراً لأنه يتطلب وقتاً طويلاً للتحرك كما أنه يعيق عملية تركيز القوة وحشدها ضد نقطة الضعف لدى العدو. ويمكن الافتراض، وفقاً لما كان يتطلع إليه (**نيلسون**) بأنه كان يرغب في دخول المعركة ليقاتل بذراعين مسلحتين، تماماً كما يفعل ابطال الملاكمة عندما بستخدمون القبضتين معاً. فقسم اسطوله إلى قبضتين: قبضة يسرى وقبضة يمنى. فكانت (**مجموعة العاصفة**) هي

القبضة اليسرى التي يجب عليها حماية اليمنى. وكانت (**مجموعة الحماية**) هي القبضة التي يجب عليها توجيه الضربة القاضية لمؤخرة العدو. وقد أعطى الأفضلية في توجيه الضربة للمؤخرة، ولم يختر المقدمة لاحتمال هذه الضربة، لأنه يعرف بأن العدو سيعمل على القيام بحركة التفاف لحماية مؤخرته مما يتطلب منه وقتاً طويلاً. في حين أنه لو اختار المقدمة لاحتمال الضربة لكان من السهل على العدو دعم هذه المقدمة، إذ لا يتطلب الأمر منه أكثر من متابعة التقدم على خط السير ذاته.

حرص (نيلسون) على عدم الالتزام بتشكيل الخط الثابت (الرتل) ذي الرأس (المقدمة) أو السير على نسق (حيث تقف السفن جنباً إلى جنب) وذلك حتى يعطي لقبضته القدرة على توجيه الحد الأقصى من قوة الدفع (الزخم). واستبدل تلك التنظيمات، بتنظيم مجموعتين من السفن يمكن لهما الابحار على شكل قافلتين وليس على شكل رتلين أو نسقين. وكانت صورة المعركة واضحة كل الوضوح أمام (نيلسون). إذ قال للأميرال (كيت) عندما شرح له خطته في (ميرتون) ما يلي: «**إن ما أريده هو أن تحدث معركة المقدمة في حالة من الفوضى والاضطراب، يختلط فيها الحابل بالنابل**». وقد كتب الأميرال (كولينغوود) بعد معركة الطرف الأغر بمدة شهرين رسالة أكد فيها ما سبق ذكره، إذ قال ما يلي: «صمم اللورد نيلسون على استخدام تنظيم دقيق يسمح له بشن هجوم عنيف بواسطة قوتين متمايزتين. . . وقد تم التنفيذ بطريقة رائعة. وتحقق النجاح بصورة مذهلة تثير الإعجاب. وقد يكون ذلك تجديداً ملائماً بالنسبة لنا، غير أن العدو تطلع لفترة من الوقت ليعرف متى سنتخذ تشكيلاً، أو شيئاً ما يشابه تنظيم الرتل». ولقد كان ذلك هو ما توقعه (نيلسون) عندما استدار بصورة مباغتة ليقول للأميرال (كيت) في (ميرتون): «**سأقول لك ما أفكر فيه. أفكر بمباغتة العدو وتشويشه. وتركه لا يعرف ماذا أريد، ولا ماذا أفعل!**» **وإذن فيجب إضافة عامل المباغتة إلى عامل الحشد، إلى عامل التفوق في المدفعية**. ويبقى الفارق المميز بين ما تضمنته (المذكرة

السرية) وبين ما حدث، هو كالفارق المميز بين الفكرة النظرية المجردة وبين الفكرة التي تم اختبارها بصورة عملية. وقد كان الهدف التعبوي - التكتيكي - في الحالين واحداً. غير أن الوسائط لبلوغ الهدف قد تغيرت بتغير ظروف القتال. وما من مدرب أو مدرس يستطيع إيضاح هذا الأمر.

تلقى (فيللنوف) أنباء يوم ١٥ تشرين الأول - اكتوبر - **١٨٠٥**، من مدينة (بايون)[٨٢] تفيد بأن الأميرال (روزيلي) هو في طريقه إلى (قادس). وبما أنه كان يعرف بأن الأميرال (روزيلي) لم يركب البحر، ولما يمارس قيادة عملية منذ أكثر من اثني عشر عاماً، فقد استنتج بأن مهمة الأميرال (روزيلي) هي مهمة إدارية. ثم وصلت إلى (فيللنوف) بعد ذلك معلومات من (مدريد) تؤكد أن (روزيلي) قد أرسل ليتولى القيادة العامة في الأسطول، فشعر بأن ذلك هو طعنة موجهة لشرفه وكرامته، وقرر ركوب البحر ومغادرة (قادس) قبل وصول (روزيلي) إليها. وقد دعم قرار (فيللنوف) هذا في يوم ١٧ تشرين الأول - اكتوبر - عندما جاءت المعلومات عن انفصال مجموعة من سفن اسطول (نيلسون) بقيادة (الأميرال لويس). وكانت الريح مناسبة للتحرك. فعقد (فيللنوف) اجتماعاً مع (الأميرال غرافينا) ثم أصدر أمره إلى قبطان سفينة قيادته بإصدار النداء: «**استعداد لركوب البحر**». غير أنه لم يتحرك فوراً بل انتظر قليلاً، وخلال ذلك كانت نسمات الريح تتناقص شدة حتى ماتت تماماً واختفى كل أثر لها. وقد كتب نيلسون في اليوم التالي: «طقس رائع، رياح شرقية خفيفة، وليس بإمكان الأسطول المشترك الفرنسي - الاسباني أن يصادف طقساً، أو أحوالاً جوية ملائمة لركوب البحر أفضل من هذه». ولكن على الرغم من ذلك، فقد تردد (فيللنوف) قليلاً، حتى انه لم يصدر الشارة إلى اسطوله (**بنشر الأشرعة والتقدم في البحر**) إلا في الساعة السادسة من صباح يوم ١٩ تشرين الأول - اكتوبر -. ومضت على ذلك فترة ساعتين ونصف الساعة، عندما تلقى (نيلسون) وهو في مواقعه التي كانت تبعد مسافة (٥٠) ميلاً إلى الغرب والجنوب الغربي من (قادس)،



معركة الطرف الأغر ١٨٠٥



ساحة الطرف الأغر ـ بلندن ـ ويتوسطها النصب التذكاري للأميرال نلسون

تلقى إشارة من إحدى حراقاته (فرقاطاته) تشير إلى أن (**العدو قد خرج من الميناء**). **وأصدر (نيلسون) أمره على الفور: (مطاردة عامة) وذلك حتى يعزل الأسطول المشترك ويمنعه من العودة إلى البحر الأبيض المتوسط. وتلقى (نيلسون) بعد ذلك شارة تقول: «دخل أسطول العدو البحر». غير أن ذلك لم يكن صحيحاً. إذ لم تغادر (قادس) إلى عرض البحر في يوم ١٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ إلا تلك القوة التي تولى قيادتها الأميرال (ماغنون). أما (فيللنوف) وأسطوله، فلم يصل إلى عرض البحر حتى ظهر اليوم التالي (٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر).**

٥ ـ المعركة الحاسمة.

لم يشاهد (نيلسون) أثراً للعدو وهو يقترب من مضيق جبل طارق في صباح يوم **٢٠** تشرين الأول ـ اكتوبر ـ **١٨٠٥**، فاستدار باسطوله، وتوجه به على اتجاه الشمال الغربي. غير أنه ما أزفت الساعة السابعة صباحاً حتى شوهد أسطول (فيللنوف) ووصل تقرير إلى (نيلسون) في فترة الظهيرة، يشير إلى أن (فيللنوف) يسير باسطوله نحو الغرب. وبعد مضي ساعة أخرى، اتجهت سفينة قيادة (نيلسون) وهي السفينة (فيكتوري) في اتجاه الأسطول المشترك، في حين صعد (كولينغوود) إلى سطح سفينته ليتلقى من (نيلسون) تعليماته الأخيرة. وعلم (نيلسون) بعد ذلك أن قائد أسطول خصمه (فيللنوف) قد غير اتجهه، وسار على اتجاه الجنوب الشرقي. ولما أشرفت الشمس على المغيب، أصدر (نيلسون) تعليماته إلى حراقاته (فرقاطاته) بالمحافظة على التماس مع سفن العدو طوال الليل.

أشرقت شمس يوم الاثنين (٢١ تشرين الأول ـ اكتوبر) ولما يتخذ الأسطول البريطاني تشكيل القتال، أو يتلقى أمراً دقيقاً بذلك. في حين كان الأسطول الفرنسي ـ الاسباني المشترك يقترب من تشكيل خط المعركة، فبدلاً من الاتجاه من الشرق إلى الجنوب، وكانت المسافة التي تفصله عن الأسطول البريطاني في حدود (١٠ ـ ١٢) ميل. ولما كانت

الرؤية غير واضحة حتى تلك اللحظة فقد انتظر (نيلسون) حتى الساعة (٦١٠) حيث أصدر عندها أمره (شكلوا رتلين أثناء تنظيم التحرك). واندفع (كولينغوود) في قيادة رتله حتى وصل بميمنته إلى ارتفاع المقدمة. وأصدر (نيلسون) بعد ذلك مباشرة أمره: «**تابعوا التقدم على اتجاه الشرق والشمال الشرقي**». **ثم لم يلبث أن أصدر أمره في الساعة (٦٢٢): «استعدوا للمعركة»**.

كان (فيللنوف) يتجه نحو مضيق جبل طارق، ولما أدرك أنه من المحال تجنب المعركة بسبب انخفاض سرعة الريح، أرسل إشارة في (الساعة ٨٠٠) إلى كافة قطع أسطوله بالانتشار، مما كان يسمح له بالمحافظة على خليج قادس ليكون على ميمنته، لاستخدامه ملجأ للسفن التي قد تصاب بأعطال. ولكن، وفي اللحظة الأخيرة، عمل (فيللنوف) على تبديل مخططه، وكان هذا التغيير هو بداية شؤم للمعركة؛ إذ اعتقد بحارة السفن أن ذلك انسحاباً، الأمر الذي أحبط من روحهم المعنوية، وليس ذلك فحسب، بل إن عملية التبديل تطلبت تحركات دائرية استغرقت مدة ساعتين حتى أمكن تشكيل خط قتالي يهيمن عليه قدر غير قليل من الاضطراب، إذ كان هذا الخط مزدحماً بالسفن في بعض أماكنه، ومتباعداً بثغرات واسعة في أماكن أخرى، كما أنه ضعيف في وسطه بسبب تعرضه لاتجاه هبوب الريح. وكان خط التشكيل بكامله يرتسم على شكل هلال (خط مقعر) غير منتظم، يمتد مسافة ثلاثة أميال. وقد حمل التغيير المذكور (الأميرال غرافينا) وقوته إلى الخلف بدلاً من أن يكون في اتجاه الريح من الأسطول، كما أصبح (دومانوار) وقوته في المقدمة. وما أن تمكن الأسطول من تغيير اتجاهه، وإكمال تشكيلة القتال حتى أخذ في التحرك بصورة بطيئة نحو الشمال بسرعة عقدة(*) أو أقل من ذلك.

مضى الأسطول الفرنسي ـ الاسباني على اتجاهه، فيما كان الأسطول

(*) العقدة (KNOT) وتساوي ميلاً بحرياً في الساعة (١٦٠٩ م/سا).

البريطاني يطارده، وقد اتخذ تشكيل الرتلين ـ أو بالأحرى تشكيل مجموعتين من السفن ـ (مجموعة العاصفة) بقيادة نيلسون، و(مجموعة الحماية) بقيادة كولينغوود. وقد شرعت المجموعتان في التحرك بأقصى سرعة لهما. وكانت الريح القادمة من الشمال الشرقي رقيقة، ناعمة، أشبه ما تكون بالنسمات. كما كانت هناك نتوءات أرضية (صخرية) بارزة إلى الغرب من محور تحرك الأسطول، الأمر الذي أرغم السفن على تخفيض سرعتها، إذ كانت تسير في البداية بسرعة ثلاث عقد، فهبطت سرعتها بغتة إلى عقدة ونصف العقدة. ولم يحاول (نيلسون) تخفيض الأشرعة، ولهذا فقد كان من المحال على السفن الانتظام في التشكيل الخطي النظامي. وعلاوة على ذلك، فقد مضى (نيلسون) يسابق (كولينغوود) وكأنهما طلاب مدارس لا قادة أساطيل. فتوجه (نيلسون) نحو مركز ثقل مقدمة العدو (وسطها) لا إلى وسط رتل العدو كما كان مقرراً من قبل. في حين اتجه (كولينغوود) إلى وسط مؤخرة اسطول العدو.

لقد عمل (نيلسون) على تغيير اتجاهه، ويعود السبب في هذا التغيير إلى النتيجة التي استخلصها من تحركات سفن الأسطول المشترك، الفرنسي ـ الاسباني؛ إذ أدرك (نيلسون) على الفور بأن خصمه (فيللنوف) سيحاول التملص من المعركة باللجوء إلى (قادس). ومما يؤكد ذلك. برقية (نيلسون) التي أرسلها إلى (كولينغوود) في الساعة (١١٤٠) وجاء فيها: «**اعتزم الاندفاع في التقدم نحو مؤخرة العدو، وذلك لاعاقته عن الالتجاء إلى قادس**». ثم أتبع ذلك في الساعة (١١٤٨) ببرقيته الشهيرة إلى كافة قطع الأسطول: «**تنتظر انكلترا من كل رجل فيكم أن يقوم بواجبه**».

عندما تلقى (كولينغوود) البرقية السابقة، كان قد اقترب كثيراً من مؤخرة العدو، الأمر الذي حمل (فيللنوف) على اصدار أمره في الساعة (١١٣٠) كما يلي: «**افتحواالنار**» وأتبع ذلك ببرقية أخرى في الساعة (١٢١٥) جاء فيها: «**لا يكون قادة السفن في مراكزهم إلا إذا كانوا في وسط نار المعركة**». وانطلقت القذيفة الأولى في الساعة (١١٤٥)، أطلقتها

السفينة (فوغو) تبعتها طلقة من السفينة (سانتا آنا) وكان هدفها إصابة السفينة الانكليزية (رويال سوفرين ـ صاحبة الجلالة). ولم تكن المسافة الفاصلة عندها تزيد على ميل وربع الميل. وترددت الألحان متناغمة، منسجمة، من على ظهر السفن في الأسطولين، وهي ترفع أعلامها وتنشر راياتها على انغام قرع الطبول ونفخ المزامير، فيما كان الجنود على سفن الأسطول الفرنسي ـ الأسباني يقفون بالاستعداد ويقدمون أسلحتهم.

لقد بدأت المعركة إذن، وبالمستطاع تقسيمها إلى ثلاث مراحل متمايزة فيما بينها: المرحلة الأولى وهي قيام (كولينغوود) بالهجوم. المرحلة الثانية قاد نيلسون هجوم سفنه، المرحلة الثالثة: قيام (دومانوار) بهجومه المضاد (الاجهاضي). وقد جرت المراحل الثلاثة على النحو التالي:

عندما فتحت السفينة الفرنسية (فوغو) نيرانها على السفينة الانكليزية (رويال سوفرين). قاد (كولينغوود) السفن التابعة له على اتجاه اليسار من خط الهجوم، وكانت المسافة الفاصلة بين السفن في حدود ربع الميل. ونتيجة لذلك، أصبحت سفنه وهي تشكل خطاً مائلاً ـ منحرفاً ـ وغير منتظم في مواجهة سفن العدو. ولكن لتحدب خط تشكيل خط سفن العدو، فقد ظهرت السفن البريطانية وهي موازية تقريباً لذلك الخط (انظر مخطط المعركة).

أوقفت السفينة (رويال سوفرين) تقدمها لمدة عشر دقائق بعد أن فتحت عليها السفينة (فوغو) نيرانها، في حين كانت السفينة (سانت آنا) تصب نيران مدافعها الجانبية عليها، ثم تحركت بعد ذلك مقتربة من السفن المعادية، واخترقت رتل تشكيلها حتى وقفت إلى الخلف من (سانت آنا) وأمام (فوغو). أي أمام (١٢) سفينة من سفن مؤخرة رتل العدو ـ كما ذكر ذلك كولينغوود ـ وعندما مرت السفينة (رويال سوفرين) من خُلف السفينة (سانت آنا) قذفتها بسيل من قنابل مدافعها الجانبية المزدوجة. فألحقت بها خسائر فادحة. ثم وجهت بعد ذلك قنابل مدافعها الجانبية ـ

اليمنى ـ على السفينة (فوغو). ثم عادت لتقصف بنيران مدافعها المحكمة مدافع السفينة (سانتا آنا) حتى تمكنت من اسكاتها.

وجد (كولينغوود) سفينته مطوقة على الفور بمجموعة من سفن العدو، التي أخذ في تبادل إطلاق النار معها لمدة أربعين دقيقة، أصبحت سفينته (رويال سوفرين) بعدها مجرد هيكل من المحطومات التي لا يمكن اصلاحها، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أقبلت السفينة (أوريالوس) فعملت على قطرها وسحبها. وفي الساعة (١٤٢٠) كانت السفينة المعادية (سانت آنا) قد تحولت إلى أنقاض وقتل من بحارتها (١٠٤) وجرح منهم (٢٣٦). وطوت هذه السفينة أعلامها، فأسرع اليها القبطان الانكليزي (بلاكوود) وصعد على متنها لانقاذ الجرحى ـ الأعداء ـ وعاد ومعه (الأميرال آلافا) إلى السفينة (اوريالوس) غير أن (الأميرال آلافا) كان مصاباً بجراح قاتلة.

دخلت السفينة الانكليزية (بيل ايسل) في المعركة بعد ثمان دقائق من التحام السفينة (رويال سوفرين) بالمعركة. فاخترقت بدورها خط تشكيل العدو، ووصلت إلى خلف السفينة (فوغو). ووجدت نفسها أيضاً وسط مجموعة من سفن العدو. ولم تتمكن خلال فترة من الوقت من استخدام مدافعها بسبب تساقط حطام صواريها المدمرة. غير أنها استطاعت على كل حال أن تحتفظ برايتها خفاقة، وعلمها مرفوعاً، بتعليقها على صاري المؤخرة، وقد أقبلت عليها فيما بعد السفن (بوليفوموس) و(سويفستر) و(ديفانس) فقطرتها وأخرجتها من المعركة.

تدخلت السفينتان (بيل أيسل) و(مارس) في المعركة، بعد ذلك بفترة ربع ساعة، وتبعتهما بسرعة بقية السفن: (تونانت) و(بيللوروفون) و(كولوسوس) و(آخيل). وقد كانت هذه السفن تصل إلى ميدان الاشتباك سفينة بعد سفينة، وبما أنها كانت تقتحم تشكيل رتل العدو من اتجاهات مختلفة. فقد كانت كل واحدة منها تشتبك مع أقرب سفينة من سفن العدو

إليها. (وطرف عارضة الشراع ضد طرف عارضة الشراع من السفينة المقابلة). ثم تمضي كل سفينة من السفن على طريقها، تاركة أمر تدمير السفينة المعادية لها، والاجهاز عليها، إلى السفينة التي تأتي خلفها. وقد أدى ذلك إلى حشد نيران قوية ومستمرة على السفن المعادية (الفرنسية والاسبانية). وكانت السفينة (دريدنوت) في مؤخرة سفن (كولينغوود) ولهذا فإنها لم تتدخل في المعركة إلا بعد مضي ساعة من بدء الاشتباك مع السفينة (رويال سوفرين) وتبعتها السفينة (ديفيانس) بعد ذلك بربع ساعة. أما السفينة (ديفانس) فلم تتدخل إلا بعد ذلك بساعة. وكانت سفينة (برانس) هي آخر سفن (كولينغوود) في اقتحام المعركة، إذ أنها لم تصل إلى ميدان الاشتباك حتى الساعة (١٥٠٠).

عندما انتهت معركة (مجموعة الحماية) كان (كولينغوود) قد حقق انتصاراً كاملاً. فقد خاض معركته ضد (١٥) سفينة اسبانية وفرنسية، وأمكن له في نهايتها أسر (١٠) سفن مع تدمير سفينة (برانسيب اوشترياس) التي كان يتولى قيادتها الأميرال (غرافينا) وقد أصيب بدوره بجراح قاتلة. وتمكنت ثلاث سفن من الفرار هي: (الجزيرة) و(مونتانا) و(ايغل)

* * *

انطلق (نيلسون) للمعركة بعد مضي (٢٥) دقيقة على اشتباك (كولينغوود) مع السفن المعادية. وقد احتفظ (نيلسون) بتشكيله غير المنتظم وهو يندفع نحو مقدمة رتل العدو. وأخذت السفن المعادية في إطلاق نيرانها على سفن (نيلسون) في الساعة (١١٥٠)(*) ولم ترد هذه على النار مباشرة، وانتظرت حتى الساعة (١٢٠٤) عندما فتحت نيرانها على السفن الفرنسية. انتظمت سفن مقدمة الأسطول الفرنسي - الاسباني

(*) الساعة (١١٥٠) تعادل حالياً (١٢١٠). والساعة (١٢٠٤) تعادل (١٢٢٤) بحسب توقيت غرينيتش. ذلك أن التوقيت قد تأخر حالياً بمقدار (٢٠) دقيقة عما كان عليه سنة ١٨٠٥.

المشترك، من الشمال نحو الجنوب، على الشكل التالي: (نبتونو) ثم (سكيبيون) ثم (انتربيد) ثم (فورميدابل) ثم (دوغاي ترون). وكانت هذه السفن بقيادة (دومانوار) الذي ذكر بأن نيلسون قد هاجمه بثلاث سفن من ذوات الطوابق الثلاثة وذلك في الساعة (١٢١٥) حيث بدأ الاشتباك بتبادل قصف مدفعي لمدة أربعين دقيقة تركز القصف خلالها على المجنبات اليمنى للسفن الفرنسية، وأعقب ذلك التحمت السفن بعضها ببعض.

وكان (نيلسون) حريصاً على اختصار مدة تبادل القصف المدفعي قدر المستطاع، كما كان حريصاً في الوقت ذاته على مجابهة خصمه (فيللنوف) وقيادة سفينته للوصول بها إلى جوار سفينة قيادة هذا الخصم، ولهذا فقد ترك السفينتين المرافقتين لتهديد بقية السفن الفرنسية. وانطلق هو في سفينته (فيكتوري) بحثاً عن سفينة قيادة (فيللنوف) غير أنه لم يوفق في بحثه، كما فشلت سفينة (تيميرير) أيضاً في الوصول إلى هذا الهدف. ولم يلبث (نيلسون) أن قاد سفينته نحو سفينة (سانتيسيما ترينيداد) على أمل أن يعثر على ضالته، إذ كانت هذه السفينة (ترينيداد) هي أضخم سفينة في الأسطول المشترك (الفرنسي ـ الأسباني). وبينما كانت (فيكتوري) تشن هجومها على (ترينيداد) في الساعة (١٢٥٧) شاهدت على مؤخرتها السفينة التي تحمل علم قيادة الأسطول (وهي السفينة الفرنسية ذات الطابقين ـ بوزانتور). وقد أخذت هذه على الفور بتوجيه نيران مدافعها على السفينة (فيكتوري) التي استدارت بدورها ووجهت نيران مدافع مقدمتها من عيار (٦٨ رطلاً) علاوة على ما كانت تقذفه من قنابل المنثار (حيث كانت القنبلة عبارة عن ٥٠٠ رصاصة كروية). كما كانت سفينة (بوزانتور) تستخدم مدفعيها الجانبيين فألحقت بالسفينة البريطانية (سفينة نيلسون) خسائر فادحة. وتدخلت بعد ذلك السفينتان البريطانيتان (نبتون) و(كونكيرر) فاقتربتا من سفينة القيادة الفرنسية (بوزانتور). وانسحبت (فيكتوري) لتسير إلى جانب السفينة (رودوتابل) التي كان يتولى قيادتها القبطان (لوكاس).

تشابكت حبال السفينتين بصورة فورية، وأعاقت كل واحدة منهما الأخرى عن الحركة، واستعد البحارة في ألسفينتين كل للانقضاض على الأخرى. غير أن المجنبة اليمنى للسفينة فيكتوري أعاقت البحارة الفرنسيين ومنعتهم من بلوغ سطحها (بسبب وجود المدافع القصيرة). كما تدخلت السفينة (تيميرير) فدمرت البحارة ومزقتهم، وانقضت على ذلك ساعة من الزمن تقريباً والسفينتان متشابكتان وعاجزتان عن الحركة، أصيب بعدها الأميرال نيلسون بشظية صدمت قمة صاري السفينة، ووصلت إلى (نيلسون) بينما كان يسير مع القبطان (هاردي) على سطح مؤخرة السفينة، وقد اخترقت الرصاصة (الشظية) كتفه الأيسر، وتجاوزت قفصه الصدري لتستقر في عموده الفقري. فسقط على وجهه، وحاول النهوض وهو يقول: «**لقد أصابوني أخيراً! يا هاردي! لقد قصم عمودي الفقري بقسوة**». ونقل (نيلسون) محمولاً إلى الأسفل، حيث قمرة قيادة سفينته. ومات في الساعة (١٦٣٠) وهم ينقلون له أنباء النصر ـ في المعركة الحاسمة ـ.

عندما كانت سفينة (نيلسون) وهي السفينة (فيكتوري) مشتبكة مع (رودوتابل)، اندفعت السفينة البريطانية (تيميرير) نحو المقدمة، وفتحت نيرانها على (ترينيداد) ثم انتقلت للهجوم على (نبتونو ـ الفرنسية). وهاجمت بنيرانها بعدها سفينة (رودوتابل).

وأثنا ذلك، كانت السفينة الفرنسية (فوغو) قد تملصت من الاشتباك مع السفينة البريطانية (بيل ايسل) وأمكن لها عبور المسافة بين مؤخرة الأسطول المشترك ووسطه، واندفعت للهجوم من أجل مساعدة السفينة الفرنسية (رودوتابل). لكنها اشتبكت مع السفينة البريطانية (تيميرير) التي اندفعت حتى دخلت في وسطها، ومزقتها، ثم تركتها عاجزة عن التحرك، معتمدة على مراسيها الاحتياطية. ولكن حدث أثناء هذا الالتحام أن قذفت السفينة الفرنسية (رودوتابل) بكل ما هو موجود على سطحها من أعتدة على مؤخرة سفينة (تيميرير). بما في ذلك الغنائم التي تراكمت فوق

القسم الأكبر من الأجناب، والمدافع التي باتت عاطلة عن العمل. وتمكنت السفينة (تيميرير) على الرغم من ذلك التعامل مع السفينة (تيرينيداد) طوال نصف ساعة، باستخدامها لمدافعها الأمامية.

أطلقت سفينة (نبتون) البريطانية طلقتها الأولى من مدافعها الجانبية على السفينة (بوزانتور) وذلك بعد مضي عشر دقائق من اشتباك السفينة البريطانية (فيكتوري) برتل السفن الفرنسية. ثم انتقلت (نبتون) للهجوم على (سانتيسيما ترينيداد) ومضت ساعة ونصف الساعة على هذه السفينة الأسبانية وهي تخوض صراعاً مريراً ضد السفن البريطانية، اضطرت بعدها لتنكيس أعلامها، تاركة على سطحها (٢٥٤) قتيلاً و(١٧٣) جريحاً. وقد وصف (ميدشيبمان بادكوك) من سفينة (نبتون) البريطانية مشاهداته عن هذه السفينة العملاقة ذات الأربعة طوابق. مما يعطي فكرة عن شكل القتال البحري في بداية القرن التاسع عشر، حيث ذكر ما يلي: **«وصلت إلى سطح سفينة ترينيداد التي غنمناها، فأخرجنا المسجونين فيها، وكان عدد القتلى بين ثلاثمائة وأربعمائة قتيل وجريح. وكانت دعائمها غارقة في الدماء وقد تناثرت فوقها الأدمغة وقطع اللحم. في حين انتشر الجرحى على السطوح الداخلية، وبعضهم فقدوا أقدامهم وآخرون فقدوا أذرعتهم وأيديهم..»**.

تدخلت بعد ذلك السفينة (بريتانيا) في المعركة، ولحقت بها السفينة (لوفياتان) ثم السفينة (كونكيرور). وقد سارت السفينتان الأخيرتان واحاطتا بالسفينة (بوزانتور) واشتبكاتا معها حتى الساعة (١٤,٠٥) حيث عمل الأميرال (فيللنوف) على تنكيس أعلامه. وقد قام القبطان (آتشيرلي) قائد سفينة (كونكيرور) بوصف المشهد الذي رآه على سطح السفينة (بوزانتور)، بقوله: **«كان القتلى رقوداً على ظهورهم، وقد تركوا حيث سقطوا، فتراكمت جثثهم في وسط سطح السفينة، وجاءت القنابل المتساقطة لتمزق كومة الجثث، وتخلطها بعضها ببعض بطريقة مرعبة.**

وقد زاد عدد القتلى والجرحى على أربعمائة جثة كان عدد كبير من رؤوس أصحابها قد فصلت عن أجسادها».

وصلت السفينة الانكليزية (آجاكس) إلى ميدان المعركة بعد أربعين دقيقة من بدايتها. وتبعتها السفينة (آغاممنون). وخاضت السفينة (أفريقيا) مغامرة مثيرة على الرغم من أنها كانت أصغر سفينة في الأسطولين المتصارعين، وعلى الرغم من أنها لم تكن مسلحة بأكثر من (٦٤) مدفعاً. وكانت هذه السفينة قد ابتعدت عن أسطولها (البريطاني) وفقدت الاتصال معه، طوال ليل **٢٠ ـ ٢١** تشرين الأول ـ اكتوبر ـ. وعندما طلع الفجر، وجدت نفسها إلى الشمال من اسطولها، وعلى بعد أميال عديدة. غير أنها تمكنت من تحديد موقعها بسرعة، وتوجهت مباشرة نحو سفينة القيادة (فيكتوري). ولم تمض على ذلك أكثر من دقائق قليلة، حتى فتحت السفينة (سوفرين رويال) نيرانها وهي تقتحم المعركة عند مقدمة رتل العدو. وتضمنت يوميات المعركة للسفينة (أفريقيا) ما يلي: «اشتبكت السفينة في الساعة (١١٤٠) مع سفينة المقدمة، ثم انحدرت جنوباً على امتداد خط سفن مقدمة العدو، وتبادلت اطلاق النار مع كل سفينة مرت بها. ثم تابعت تحركها لدعم معركة السفينة نبتون، فاشتبكت مع السفينة (سانتيسيما ترينيداد) ثم اشتبكت أخيراً مع انتريبيد».

قامت السفينة (اوريون) بدور مميز أيضاً، إذ ما كاد قائدها (القبطان كودرينغتون) يشاهد سفن العدو وهي تحتشد بأعداد كبيرة ضد سفينة نيلسون، حتى أسرع بالتوجه جنوباً لمساعة السفينة (رويال سوفرين). ومرت أثناء ذلك بالسفن الصديقة (مارس) و(كولوسوس) و(تونانت) ثم تجاورتها لتأخذ اتجاه الشمال من أجل دعم معركة السفينة (فيكتوري). وكانت آخر سفينتين من سفن نيلسون في اقتحام المعركة هما (مينوتور) و(سبارتيات) إذ انهما لم تشتبكا في المعركة إلا بعد ما تم قهر (فيللنوف) والانتصار عليه.

* * *

يمكن بعد ذلك التعرض لما يمكن أن يطلق عليه تجاوزاً اسم (الهجوم المضاد) والذي تولى قيادته الأميرال (دومانوار).

عندما انقضّ (نيلسون) على مركز ثقل الأسطول المشترك (الوسط) في الساعة (١٢٣٠) ارسل (فيللنوف) إشارة عامة إلى كافة سفن الأسطول طلب إليها اقتحام المعركة والالتحام فيها. غير أن الأميرال (دومانوار) لم يستجب لنداء قائده (الأميرال فيللنوف) الذي تجاهل بدوره أمر مرؤوسه. ومضت نصف ساعة على ذلك، ولا زال (دومانوار) يتابع سيره نحو الشمال، مما أحدث ثغرة واسعة بين المقدمة والوسط، ولم يحاول (دومانوار) استخدام مبادأته لسد هذه الثغرة، وإنما راح يطالب قائده (فيللنوف) بإصدار الأمر اللازم لزجه في القتال، ولم يرد (فيللنوف) على طلب (دومانوار) حتى الساعة (١٣٥٠) حيث طلب إليه التدخل لدعم الوسط (القلب) الذي كان يعاني ضغوطاً قوية.

كانت الريح هادئة جداً، مما جعل من الصعب على (دومانوار) القيام بمناوراته. وزاد الموقف سوءاً عندما قسم المجموعة التي يقودها في المقدمة، والتي تضم (١٠) سفن إلى قسمين وذلك بدلاً من أن يحتفظ بكامل السفن في قبضته حتى يجابه الموقف بكل قوته. وتحرك (دومانوار) بصورة بطيئة جداً حتى الساعة (١٥١٥) أو الساعة (١٥٣٠) حيث شاهد القبطان الانكليزي (هاردي) وهو في سفينته (فيكتوري) اقتراب السفن الخمسة التي يقودها (دومانوار) وهي تتجه نحو الجنوب، فما كان منه إلا أن أرسل تحذيراً إلى مجموعة (نيلسون) وذلك للاستعداد لاستقبال هذه السفن ومجابهتها.

كانت السفن الخمسة التي رآها (هاردي) هي: (هيروس) و(انتريبيد) و(سان أوغستان) و(سان فرانسيسكو) و(رايو). وقد أسرعت لمجابهتها، وفور استلام الإنذار، السفن البريطانية التالية: (كونكيرور) و(اجاكس) و(آغا ممنون) و(لوفياتان). وما هي إلا جولة قصيرة حتى هزمت السفينة (سان أوغستان) وتعطلت. كما أن السفينة (هيروس) خرجت من المعركة، واتجهت إلى (قادس). وفرت السفينتان (سان

فرانسيسكو) و(رايو) غير أن الأولى (سان فرانسيسكو) ما لبثت أن تعرضت للدمار في حين استسلمت الثانية (رايو) للسفينة البريطانية (لوفياتان) في يوم **٢٣** تشرين الأول ـ اكتوبر ـ. وتعرضت السفينة (انتريبيد) الفرنسية والتي كان يقودها القبطان (اينفرنيه) لهجوم رائع قامت به ضدها السفينة (أفريقيا) ثم تعرضت هذه السفينة ذاتها (انتريبيد) لهجمات السفن البريطانية (آجاكس) و(آغاممنون) و(أوريون) وخاضت صراعاً بطولياً إلى أن أرغمت على الاستسلام للقبطان (كودرينغتون).

في هذا الوقت ذاته، كانت الخمس السفن الباقية من قوة (دومانوار) تقترب من ميدان المعركة، وكانت السفينة (فورميدابل) ومعها سفينتان أخريان قد قطرت بالزوارق نظراً لتوقف هبوب الريح، إلى أن وصلت خط الاشتباك. وتقدمت السفينة (فورميدابل) لتسير في الطليعة، تتبعها السفينة (سكيبيون) فالسفينة (مونت بلان) فالسفينة (دوغاي ترون) وأخيراً (نبتونو ـ الفرنسية). وقد بدأت هذه السفن معركتها بفتح النار على السفينة البريطانية (كونكيرور) ثم تجاوزتها إلى أن أصبحت مجنباتها مقابلة للسفن البريطانية (فيكتوري) و(تيميرير) و(رويال سوفرين). وفي هذه اللحظة تقدمت السفينتان البريطانيتان (مينوتور) و(سبارتيات) واللتان لم تكونا قد اشتبكتا في المعركة حتى الآن، فعملتا على عزل السفينة الفرنسية (نبتونو) التي لم تلبث أن استسلمت ونكست أعلامها. أما السفن الأربعة الباقية من قوة (دومانوار) فقد فضلت الابتعاد عن المعركة، وسارت نحو الجنوب إلى أن اختفت، غير أنها لم تتمكن من النجاة، فقد انطلق (سيرريتشارد ستراخان) لمطاردتها ومعه بضع سفن، وأمكن لها تطويقها وحملها على الاستسلام في يوم **٤** تشرين الثاني (نوفمبر) **١٨٠٥**.

وصلت المعركة نهايتها تقريباً في الساعة (**١٦٣٠**) وتمزق اسطول (فيللنوف) الذي كان يضم (**٣٣**) سفينة حربية. تمكنت تسع منها مغادرة ميدان المعركة والاتجاه إلى (قادس). كما أن أربعاً منها هربت نحو مضيق

جبل طارق. أما العشرون الباقية، فقد أصبحت (١٧) منها غير قادرة على العمل إطلاقاً، ومنها ١٣ وقعت غنيمة مع بحارتها في قبضة الأسطول البريطاني واحترقت إحدى السفن وأصبحت نهباً للنيران. ومع اقتراب الليل، هبت العاصفة الهوجاء التي كانت ترسل بنذرها منذ الصباح، واستمرت في عتوها وشدتها لمدة أربعة أيام. فعملت على إغراق وتدمير كافة السفن التي أصيبت خلال المعركة بأعطال كبيرة، ومن بينها السفن التي غنمها الأسطول البريطاني، فلم يبق في قبضة هذا الأسطول منها إلا أربع فقط. ولم يخسر الأسطول البريطاني آنذاك سفينة واحدة، سواء أثناء المعركة، أو أثناء التعرض للعاصفة التي تلت المعركة.

تناقضت المصادر في ذكر عدد القتلى والجرحى والمشوهين (الذين بترت بعض أطرافهم) وقد ذكرت المجلة البريطانية (لندن غازيت) في عددها الصادر يوم (٣ كانون الأول - ديسمبر - ١٨٠٥) أن عدد قتلى البريطانيين هو (٤٤٩) قتيلاً، و(١٢١٤) جريحاً. أما بالنسبة لخسائر الفرنسيين وحلفائهم الاسبانيين، فقد حددتها المصادر بما يلي: بلغت خسائر الفرنسيين (٣٣٧٣) رجلاً بين قتيل وغريق، بالاضافة إلى (١١٥٥) جريحاً. أما خسائر الأسبانيين فقد بلغت (١٠٢٢) قتيلاً و(١٣٨٣) جريحاً و(٣ - ٤) آلاف أسير. وكان عدد أسرى الفرنسيين معادلاً تقريباً لعدد أسرى الاسبانيين. وهناك احتمال بأن يرتفع عدد أسرِي الفرنسيين وحلفائهم إلى أكثر من (١٤) ألف رجل (ما بين ضابط وجندي). وقد كان هذا العدد يشكل رقماً مذهلاً، غير أنه يبقى أقل من عدد الخسائر التي تكبدتها القوات في معركة (ليبانتي)(*) البحرية.

(*) ليبانتي: (LEPANTE) أو (LEPANTO) مدينة بحرية في اليونان (إقليم آكارناني وايتوال -ACARNA NIE- ET- ETOILE) على مضيق ليبانت والذي يصل بين خليج بتراس: PATRAS: وخليج كورينث. وقد خاضت النمسا معركة بحرية كبيرة ضد المسلمين العثمانيين (سنة ١٥٧١م) وانتصرت عليهم - وكان السبب في ذلك هو مطالبة الباب العالي الحصول على جزيرة قبرص من جمهورية البندقية. ولما امتنعت هذه، أعلنت الحرب، فقام ملك أسبانيا (فيليب الثاني) و(الباب بولس الخامس) بدعم جمهورية البندقية، وأرسلت هذه الدول المتحالفة أساطيلها إلى (مسينا) في أيلول - سبتمبر - ١٥٧١ وقاد =

خاض الطرفان المتصارعان معركة (الطرف الأغر) ببسالة مثيرة للإعجاب. وعلى الرغم من تناقص القدرة والإحباط لدى الفرنسيين والاسبانيين، مما حدث في بداية المعركة، فقد خاضت القوات معركتها بتصميم وعناد لا يقل عما أظهره البريطانيون من التصميم والعناد. وإن مقارنة معركة (الطرف الأغـر) بمثيلاتها من المعارك الحديثة، هو أمر كاف لإبراز (روح الفروسية) التي رافقت المعركة، و(السلوك النبيل) للمقاتلين بعد انتهاء المعركة. وعلى سبيل المثال: فقد احتفلت (هيئة لندن) بتكريم أسير الحرب (القبطان لوكاس ـ قائد السفينة رودوتابل)؛ وفي الحفل قام القبطان (انغرنيه ـ قائد سفينة انتربيد) بتقديم احترامه لزوجة آسره (السيدة كودرينغتون). وقد سمـح للأميـرال (فيللنوف) و(القبـطان ماغندي) بحضور حفل قداس وجناز الأميرال (نيلسون) وبقيت الحرب محتفظة بفضائلها وروحها النبيلة، السامية، المتعالية على الأحقاد. ولم تتمكن الثورة الفرنسية من القضاء على هذه النزعة الانسانية.

أرسل القبطان (كودرينغتون) قائد السفينة (أوريون) بعد المعركة، رسالة وصف فيها الحياة في جبل طارق، وتضمنت الرسالة ما يلي: «كان حاكم الجزيرة ـ جبل طارق القديم ـ يتناول طعام العشاء، مع روك ـ جبل طارق الجديد ـ. وكان مع حاكم روك، عدد من الضباط والجنود، يتناولون طعام العشاء معه. وأثناء ذلك كان هناك حفل سباق للخيل في أسبانيا، بينما كانت مدافع الزوارق ـ السفن ـ في الجزيرة، تقذف قنابلها على قافلة كانت قادمة تحمل الامدادات للحامية البريطانية. وكنت أقف عندما حدث ذلك مع أحد مساعدي قائد المعسكر ـ الجنرال فـوكس ـ فوق الخط الدفاعي الاسباني. وأرقب منه انطلاق النيران الاسبانية وهي تنصب على

= ملك النمسا (دون خوان) هجوم الأساطيل ضد الأسطول العثماني الذي كان مرابطاً في خليج (ليبانتي) أو (ناوباقتوس القديمة). وتعرض الأسطول الاسلامي الذي كان مدعماً بأسطول عكا للدمار التام. وأبيدت قوته. غير أن الدولة العثمانية تمكنت من إعادة بناء الأسطول بسرعة. وعقد البنادقة صلحاً مع العثمانيين في آذار ـ مارس ـ ١٥٧٣ تنازلوا بموجبه عن قبرص للمسلمين الأتراك.

المركب الشراعي وحيد الصاري (بيغل) الذي دخل في مجال رمي المدافع الاسبانية. وكانت مدافع المركب تقصف المدفعية الاسبانية بنوع من اللامبالات الظاهرة، وكأنهم يريدون اعتباري شاهداً للهجوم على أمة معادية لانكلترا».

أرسل (كولينغوود) تقريره عن المعركة إلى انكلترا في يوم **٢٧** تشرين الأول ـ اكتوبر ـ وقام بحمل الرسالة الملازم (لابينوتيير) الذي استخدم لرحلته سفينته ذات الصاري الواحد (بيكل). ووصل الملازم لابينوتيير إلى خليج (فالموث) في يوم ٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ حيث توجه فوراً، وخلال مدة نصف ساعة فقط، إلى لندن، وقد اضطر خلال رحلته لتبديل (١٩) حصاناً، حتى وصل إلى أمام باب وزارة البحرية في لندن (الأدميراليتي)على الساعة الواحدة من صباح يوم ٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٠٥. ولم تمض إلا دقائق فقط حتى قابله الأمين العام الأول للوزارة، وكانت الكلمات الأولى التي قالها الملازم (لابينوتير) في مقابلته: «**سيدي! لقد أحرزنا نصراً رائعاً، غير أننا خسرنا اللورد نيلسون**».

حتى (نابليون بونابرت) كان شديد التأثر بمعركة الطرف الأغر، فقد بلغته أنباء هزيمة قائد أسطوله (فيللنوف) وهو في (زنايم)(*) أثناءمسيره إلى (النمسا). ومضت أشهر على ذلك عندما وجه (نابليون) نداء كرر فيه قول (نيلسون) ـ مع تعديل من وجه اليهم ذلك النداء ـ حيث قال: «**تعتمد فرنسا على قيام كل فرد بواجبه**» ويجب على كل مقاتل أن يضع هذا القول نصب عينيه.

تكمن عظمة نيلسون وكفاءته العليا، في عمله أميرالاً للبحر، وإلى حد كبير، بابتعاده عن النظرية المتبعة ـ التقليدية ـ في أمر القتال. ولا مجال للنقاش في أن (نيلسون) كان سباقاً بل لعله أول من أدرك بوضوح أن تلك

(*) زنايم : (znaim)وبالافرنسية (ZNOJMO) مدينة ألمانية في مورافيا ـ تشيكوسلوفاكيا). وقد انتصر فيها القائد الفرنسي (مارمون) على النمساويين سنة ١٨٠٩ وتشتهر المدينة بصناعاتها.

النظرية التقليدية كانت فكرة دفاعية مجردة لا تصلح لحسم الصراع. ووفقاً لهذا، فإن خط معركة السفن هو الخط الذي يمكن له تحقيق أكبر قدر من التفوق بالنيران التي يمكن توجيهها ضد عدو يقترب في تشكيل الرتل ـ أو الخط، النسق ـ بحيث ان اقتراب هذا العدو، أو حتى محاولة اقترابه، من خط القتال تعتبر عملاً انتحارياً. وهكذا يكون (نيلسون) هو الذي تمكن من رؤية الثغرة في النظرية، وقد أمكن له ذلك بفضل معرفته للمدى المحدود للمدفعية في أيامه، ولما تميزت به تلك المدفعية من عدم الدقة، حتى ان الخطر من الدمار والخروج من المعركة لدى الاصطدام بجدار من الحشد الناري كان محدداً بمئات الأمتار الأخيرة التي تسبق الوصول لسفن العدو، وقد رأى (نيلسون) زيادة على ذلك بأنه ما ان يتم تحقيق التماس مع العدو حتى رأى بأن التفوق في النيران هو العامل الحاسم الذي يمكن بواسطته التغلب على التفوق العددي، وعلى التشكيل القتالي مهما كان نوعه أو شكله. وكان الركب البريطاني (البحارة) يتفوقون من هذه الناحية تفوقاً واضحاً على أعدائهم، ولم يكن سبب تفوقهم هو مهارتهم في توجيه النيران الدقيقة فحسب، وإنما بسبب سرعتهم أيضاً. ونتيجة لذلك، كانت قدرتهم التدميرية تزيد على الضعفين بالمقارنة مع خصومهم في معدل الاصابات (نسبتها). وقد ظهر ذلك واضحاً عند الحصار على الأقل حيث وقف البحارة الفرنسيون والاسبانيون وهم في حالة عجز عن استخدام مدافعهم في حين كان البريطانيون قادرين على ذلك.

عندما تسلم (كولينغوود) قيادة (السفينة دريدنوت) أظهر اهتماماً خاصاً بتدريب البحارة بصورة مستمرة على ممارسة الرمي. وقد تضمنت مراسلات (كولينغوود) نصاً جاء فيه ما يلي: «... في مجال التدريب على المدافع الكبيرة، هناك قلة من سرايا السفن التي تستطيع منافسة سرايا السفينة في سرعة اطلاق النيران ودقتها، وكان من عادة كولينغوود أن يردد على سمع جنوده باستمرار: بأنه إذا ما أمكن لهم إطلاق ثلاث قذائف محكمة الدقة من مدافعهم خلال خمس دقائق، فلن يكون هناك زورق

يستطيع مقاومتهم . . . وقد أمكن لهم بفضل التدريب المستمر الوصول إلى تنفيذ ذلك خلال فترة ثلاث دقائق ونصف الدقيقة فقط» وقد كان ذلك يعني، أنه عندما يحدث الاشتباك القريب، فإن السفينة التي تستطيع إطلاق نيرانها بمعدل الضعف على ما تطلقه السفينة المنافسة لها، فإنها تمتلك قدرة نارية تعادل سفينتين. وبالتالي، فإن المشكلة التعبـوية ـ التكتيكية ـ وفقاً لما رآها نيلسون، هي في الاقتراب من العدو قدر المستطاع واختيار التشكيل المناسب، والذي يمكن وصفه باصطلاحات الوقت الحاضر (بالحرب الصاعقة في البحر).

تبقى معركة (الطرف الأغر) من المعارك الحاسمة في التاريخ، من كافة الوجوه، لا سيما من حيث تأثيرها العميق على مجرى الأحداث التاريخية. فقد أمكن لها تدمير حلم نابليون بغزو انكلترا مرة واحدة وإلى الأبد. كما وضعت حداً نهائياً للصراع الذي استمر مائةعام فيما بين انكلترا وفرنسا للسيطرة على البحار. وأعطت لبريطانيا أمبراطوريتها على المحيطات. وهي الأمبراطورية التي عاشت طوال أكثر من قرن من الزمن، مما دفع بعض الكتاب والمؤرخين لتسمية هذه الفترة باسم (العصر البريطاني). ولم تكن الأهمية المباشرة (لمعركة الطرف الأغر) أقل من أهميتها غير المباشرة، إذ أظهرت لعالم سنة ١٨٠٥ بأنه من الممكن الحاق الهزيمة بنابليون. وهذا بدوره مما دفع نابليون للعودة إلى مسرح عملياته على القارة الأوروبية بحثاً عن إقامة امبراطورية عالمية يمكن لها خنق انكلترا اقتصادياً (تجارياً). وهي الامبراطورية التي انتهـت بخنق نابليون ذاته والقضاء على سياسته. وبالامكان القول، بكثير من الدقة، انه لولا انتصار البريطانيين في معركة (الطرف الأغر) لما أمكن لهم الاستمرار في حرب شبه الجزيرة الأندلسية (اسبانيا). ولولا انتصارهم في هذه الحرب، لما كانت هناك معركة (واترلو) على الاطلاق. ولعل ذلك هو الذي أقنع الرئيس الأمريكي ويلسون بأهمية معركة الطرف الأغر، حتى أطلق مقولته الشهيرة:

«كانت معركة الطرف الأغر، هي المعركة الحاسمة فعلاً في الحروب النابوليونية».

«يبرهن التاريخ العسكري أن النجاح العظيم أو الاخفاق الذريع، لم يكن إلا نتيجة تطبيق مبادىء الحرب أو إغفال تطبيقها»

جوميني

الفصل الثاني

١ ـ وجيز الأحداث بعد معركة الطرف الأغر.
٢ ـ معركة الطرف الأغر وموقعها في التاريخ
٣ ـ نيلسون، وفن الحرب.
٤ ـ نيلسون، إنساناً وقائداً.

١ ـ وجيز الأحداث بعد معركة الطرف الأغر

١٨٠٦ الحرب بين بروسيا وفرنسا، انتصار نابليون في معرك يينا.

١٨٠٧ معارك شرق بروسيا بين البروسيين والفرنسيين.

١٨٠٨ الحرب الاسبانية ضد فرنسا، وخلع (جيروم) شقيق نابليون

١٨٠٩ استئناف الحرب بين فرنسا والنمسا (معركة واغرام).

١٨١٠ زواج نابليون بالارشيدوقة (ماري لويس) وضم هولاندا إلى فرنسا.

١٨١٢ حملة نابليون على روسيا. وبداية أفول نجم نابليون.

١٨١٣ تحالف بروسيا والنسما ضد نابليون. وطرد القوات الفرنسية من جرمانيا.

١٨١٤ غزو الحلفاء فرنسا وانتصارهم على نابليون وارساله منفياً إلى (جزيرة البا)

١٨١٥ عودة نابليون إلى فرنسا (حكم المائة يوم) وهرب لويس الثامن عشر.

١٨١٥ انتصار الحلفاء في واترلو. وعودة لويس الثامن عشر، ونفي نابليون إلى جزيرة (سانت هيلانة).

١٨١٧ اعتراف الباب العالي باسقلال الصرب (بلغاريا).

١٨٢١ بدء الثورة اليونانية بتحريض من (روسيا).

١٨٢٤ موت لويس الثامن عشر، وخلفه شارل العاشر.

١٨٢٧ القوات الفرنسية تدخل اليونان، وتنفذ قرار لندن بمنح اليونان استقلالها

١٨٢٧ معركة (نافاران) وتدمير الأسطول العثماني من قبل دول الحلف الثلاثي.

١٨٢٨ الحرب الروسية ـ العثمانية، واستقلال رومانيا عن السلطنة العثمانية.

١٨٣٠ ثورة فرنسا، وخلع شارل العاشر وتنصيب لويس فيليب ملكاً على فرنسا.

١٨٣٠ احتلال فرنسا للجزائر ـ بداية الاستعمار الفرنسي للمغرب العربي الاسلامي.

١٨٤٢ حرب الافيون وفتح خمسة موانىء في الصين للتجارة الأجنبية. امتلاك انكلترا هونغ كونغ في الصين.

٢ـ معركة الطرف الأغر، وموقعها في التاريخ:

يرفض النسيج التاريخي كل بتر لأحداثه، أو كل تجزئة لتلاحم سداه ولحمته، ذلك أن دقة هذا النسيج وقوته وفائدته انما تكمن في ترابط الاحداث وانسجامها بعضها ببعض عبر أبعاد الزمان والمكان. ومن هذه الاحداث ما هو صغير الحجم، دقيق الشكل، حتى ليكاد يغيب عن النظر، ومنها ما هو ضخم الحجم واضح المعالم، بحيث يحتل مساحة تزيد أو تنقص بمقادير متفاوتة تبعاً لزاوية نظر الانسان المتطلع إليها، والذي يحاول سبر أبعادها. وعلى هذا، فان معـركة

(الطرف الأغر) لم تكن إلا نتيجة مجموعة من المقدمات والاحداث التمهيدية. وقد سبقتها معارك بحرية عديدة (مثل معركة النيل، ومعركة سانت فانيسان الخ. . .) وهذه المعارك بمجموعها هي احداث مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالصراع المسلح القاري الذي كانت تقوده فرنسا ضد أوروبا عامة، وهذا الصراع المسلح في البر والبحر مرتبط بدوره أيضاً بالصراع الاقتصادي الذي تعاظم بتأثير الثورة الصناعية في انكلترا وفرنسا بصورة خاصة.

لم يكن هذا الصراع على كل حال هو صراع بين قضية عادلة، وقضية غير عادلة. وانما كان صراعاً على مفاهيم مادية، حياتية، أفرزتها وأبرزتها ظروف الثورة الصناعية. وقد كان على انكلترا، حتى تحتفظ بقدرتها وترفها ورفاهها، أن تصدر بضائعها التي تنتجها في مصانعها. كما كان على فرنسا حتى تمتلك القدرة والرفاه، أن تحمي صناعتها الوليدة. وهو الأمر الذي عبر عنه (مترنيخ) بقوله: «**يعرف كل انسان بأن انكلترا لن تفسح المجال لمنافستها في قدرتها البحرية، وهي القدرة التي تعتبر بالنسبة لها قضية حياة أو موت**». وقد أدرك (نابليون بونابرت)هذه الحقيقة التي دفعته الى اعتماد اسلوب (الحصار القاري) من أجل خنق التجارة الانكليزية، وتجريدها بالتالي من قدرتها التي لا تستطيع من غيرها الاستمرار في مقاومته أو التصدي لمشاريعه، أو تنظيم المقاومات وحشد القوى المعادية لها. وعبر (نابليون) عن ذلك بقوله: «**تكمن قوة انكلترا وقدرتها في ممارستها للاحتكار وفرض هيمنتها على بقية الامم. وهي لا تستطيع الاحتفاظ بقدرتها الا عن هذا الطريق. فلماذا تستثمر انكلترا وحدها، ووحدها فقط، تلك الأرباح التي يمكن للملايين من الشعوب الاخرى استثمارها؟ . . .**» وأضاف نابليون: «ان الثروة التي تمتلكها اوروبا، والتي تغلف حياتها بغطاء ظاهري من الترف، هي ثروة لا تعتبر شيئاً لدى مقارنتها بتجارة لندن. **وهم-أي الانكليز- على استعداد للتضحية بأي دولة من دول**

اوروبا، وحتى بالعالم كله، لقاء المزيد من مضارباتها، ولو من أجل صفقة واحدة. ولقد كان باستطاعتهم أن يكونوا أكثر عقلانية، واكثر حكمة، لو لم تكمن اعتماداتهم بمثل هذه الضخامة. وهم يسيرون مدفوعين بالحاجة لزيادة هذه الاعتمادات، وبالمحافظة عليها...».

وقد رأى نابليون أن صراعه ضد انكلترا يتطلب منه تأليب العالم كله، وتحريض شعوبه، ضد الهيمنة البريطانية. وهذا ما دفعه للتفكير باقامة (امبراطورية قارية عالمية). وقد كان ذلك مخططاً طموحاً حتى أبعد حدود الطموح. غير أن انكلترا جابهت هذا التحدي باستجابة مناسبة، إذ لم يكن باستطاعتها المحافظة على وجودها الا بالاعتماد على (قدرة بحرية مهيمنة) تفرض وجودها على اوروبا، وتمتد بأذرعتها الى كافة انحاء العالم، فكان الصراع الانكليزي - الفرنسي هو صراع مصيري، صراع على الوجود، صراع حياة أو موت.

إن ذلك يفسر ظاهرتين مميزتين: اولاهما مدى تأثير معركة (الطرف الأغر) على مسيرة الحروب النابوليونية، وبالتالي على اوروبا كلها، وعلى مستقبلها. وثانيتهما، تأثير هذه المعركة على مستقبل العالم، فاذا كانت الحروب النابوليونية قد دفعت انكلترا الى احتلال مستعمرات ما وراء البحار والتي كانت تحتلها فرنسا في الهند الغربية (امريكا اللاتينية وجزر الانتيل). فان ذلك قد تطور بعد الحروب النابوليونية، فأخذت روسيا بتطوير عدوانيتها ضد الدولة العثمانية الاسلامية، وأخذت فرنسا في البحث عن أسواق جديدة دفعتها لبدء عصر الاستعمار بالاستيلاء على المغرب العربي-الاسلامي. وكذلك فعلت انكلترا التي امتدت بأذرعها البحرية للوصول الى اليابان والصين شرقاً والى أعماق القارة الافريقية جنوباً. وسارت بقية الدول الغربية على نهج انكلترا وفرنسا، فكان القرن التاسع عشر هو قرن الاستعمار الغربي، لا عصر (الامبراطورية البريطانية) وحدها، ولو أن انكلترا كانت هي القدرة المهيمنة على عملية الاستعمار الغربي، والموجهة لها،

بما يتوافق مع المصالح البريطانية ولا يتناقض أو يتعارض معها. وبكلمة اخرى، فقد حلت بريطانيا تناقضاتها الاستعمارية مع حليفاتها في أوروبا ـ ولو إلى حين ـ على حساب بقية شعوب العالم. وكانت البحرية البريطانية هي الهيكل العظمي، أو الذراع المنفذة، لعملية الاستعمار. وإذا كانت هذه الذراع مصدر الثروة والرفاه لبريطانيا فقد كانت مصدر البؤس والفقر والتخلف للدول التي وصلتها الذراع البريطانية وعملت على نهبها.

إن ذلك ما يظهره بوضوح جدول (وجيز الاحداث بعد معركة واترلو) فقد انصرف نابليون لحروبه البرية (القارية). ومضى في محاولاته لاقامة امبراطوريته العالمية، مهتدياً بهدى (الاسكندر المقدوني) و (يوليوس قيصر). غير أن (الذهب البريطاني) برهن في النهاية على قدرته في الحرب الاقتصادية والسياسية والعسكرية. وقد كان نجاح بريطانيا كبيراً في توظيف الذهب لدعم الاحلاف ضد فرنسا النابولونية، ولبناء قدرة بحرية تتمتع بكفاءة قتالية عالية. وإذن فقد كان الاسطول البريطاني هو مصدر (الذهب البريطاني) وكان هذا الذهب بدوره مصدر القوة لبناء الاسطول. وتلك هي المعادلة الجدلية التي بنت عليها بريطانيا امبراطورية (لا تغرب عنها الشمس) طوال قرن ونيف من عمر الزمن.

ولكن لماذا أحدثت معركة (الطرف الأغر) بالذات هذا التأثير في تيار التاريخ؟

ألم ينتصر نيلسون على نابليون في معركة النيل (أبي قير) ودمر اسطول (برويز) في تلك المعركة؟.

ألم يكن له دور حاسم في معركة (سانت فانسان) فأحبط مخطط نابليون؟...

لقد كانت معركة النيل من المعارك الحاسمة التي تركت أثراً

عميقاً على مصير المشرق العربي-الاسلامي. وقلبت أحلام نابليون في اقامة امبراطورية شرقية رأساً على عقب، وأرغمت نابليون على العودة سراً إلى بلده-فرنسا-تاركاً جيشه تحت رحمة الأقدار. ولكن، وعلى الرغم من فداحة الكارثة وثقلها، فقد كانت أمام نابليون فرص كثيرة لاعادة تنظيم قواته، وبناء قدراته. غير أن (معركة الطرف الأغر) جاءت وقد تربع نابليون على عرش الامبراطورية، وترك في أوروبا كلها ضجيجاً بأنه (القائد الذي لا يقهر) فجاءت المعركة لتطعن نابليون وهو في أوج قدرته، ولتحول مده الى جذر، وإشراقته الى كسوف، وصحيح أن نابليون استطاع بعد ذلك احراز عدد من الانتصارات الحاسمة. غير أن نتائج تلك الانتصارات كانت محدودة في تأثيرها على مسيرة الاحداث التالية لها.

هنا لا بد من التعرض لنقطة مثيرة في مجال بناء القدرة الذاتية، وهي تبرز التناقض بين السياسة الاستراتيجية لانكلترا وفرنسا خلال مرحلة الصراع المصيري.

لقد عملت بريطانيا على استخدام ذراعها الطويلة، الاسطول، للوصول الى الممتلكات الافرنسية-والاسبانية، والاستئثار بثرواتها من أجل دعم (صناديق الذهب) وكانت وهي تفعل ذلك تنظر الى الصراع في إطار حرب طويلة الأمد، في حين كان نابليون يبحث عن الثروة لدعم قدرته الحربية في اطار صراع محدود، ولعل اقدام نابليون على بيع (لويزيانا)(*) للولايات المتحدة الامريكية هو أفضل برهان على ذلك، فقد باع نابليون (لويزيانا) حتى يتمكن من دعم قدرته العسكرية في سنة ١٨٠٣. وقام بفرض أنظمة على أوروبا (واسبانيا)

(*) لويزيانا: (LOUISIANE) إحدى الولايات الامريكية المتحدة. وتقع على خليج المكسيك عاصمتها (باتون روج: BATON ROUGE) وكانت لويزيانا مستعمرة فرنسية منذ سنة ١٦٩٩، وتم تعميدها بهذا الاسم نسبة إلى اسم ملك فرنسا لويس الرابع عشر. وقد باعها نابليون بونابرت لأمريكا سنة ١٨٠٣.

كان من بعض نتائجها الحاق الضرر المادي والمعنوي بشعوب اوروبا مما دفعها الى التذمر ثم الانتقال من التذمر الى الصراع المسلح، وهذا هو ما دفع قيصر روسيا الى التخلي عن نابليون والانضمام الى انكلترا، لأن الحصار القاري قد أضر بالاقتصاد الروسي باكثر مما أضر بالاقتصاد البريطاني. وهكذا فان اسلوب نابليون لبناء القدرة الذاتية كان اسلوباً محدداً في اطاريه الزمني والمكاني، مما أسهم في فشله.

ترى هل باع نابليون (لويزيانا) الى الولايات المتحدة الامريكية، لاعتقاده بقصور فرنسا عن بناء قدرة بحرية كافية تمكنها من تحقيق الارتباط الثابت بين فرنسا وبين مستعمراتها فيما وراء البحار؟ إذا كان ذلك، فان السياسة الاستراتيجية لفرنسا نابليون هي سياسة مناقضة تماماً للسياسة الاستراتيجية البريطانية، وإن فشل الاولى ونجاح الثانية هو تجربة تاريخية مثيرة تؤكد صحة العلاقة الجدلية القائمة بين القدرة البحرية والقدرة المالية (الثروة) بحيث ان قوة الاولى تؤدي الى قوة الثانية وضعف الثانية هو ضعف للأولى (بشرط أن توجه القدرتان على اتجاه واحد، وللوصول الى هدف واحد يمتد الى أبعد ما يحتويه الافق المنظور).

تبقى الحقيقة التي لا تقبل الجدل أو النقاش، وهي أنه لم يكن باستطاعة انكلترا الاحتفاظ بممتلكاتها (مستعمراتها) فيما وراء البحار، الا بفضل الاسطول، كما أنها لم تتمكن من تجريد فرنسا من ممتلكاتها الا بفضل الاسطول أيضاً. وقد أحبط هذا الاسطول احلام نابليون في البحر الأبيض المتوسط، وعاد فأحبطها من جديد عند محاولة نابليون نقل الحرب الى الجزيرة البريطانية، ولم يبق أمام نابليون ـمرغمًا أو مختاراًـالا التوجه نحو الحروب القارية ـ البرية. وقد أدت مجموعة العوامل الى ظهور تناقضات دفعت نابليون لمهاجمة روسيا. فكانت نكسته المريرة أمام أبواب موسكو. وكانت بداية النهاية.

هنا تعود مرة اخرى المفارقة المثيرة: ترى أيهما كانت أبعد أثراً على مجرى التاريخ، هزيمة الاسطول الفرنسي ـ الاسباني المشترك في معركة (الطرف الأغر) أم هزيمة نابليون أمام (كوتوزوف) على أبواب موسكو؟.

قد يكون من المحال مقارنة معركة بمعركة، وقد يكون من الصعوبة بمكان مقارنة قائد بقائد، ولعل الحروب النابوليونية وحدها كافية للبرهان على هذه الحقيقة، ذلك أن هذه الحروب (النابوليونية) أفرزت مجموعة من القادة احتلوا مكانة مميزة في التاريخ العسكري بفضل ما توافر لهم من الظروف، وبفضل ما تجمع لديهم من التجارب والخبرات العملية. وعلى الرغم من ذلك فلم يكن كوتوزوف مثل (سوفوروف) ولو أن الأول تعلم ممارسة الحرب ومبادئها على أيدي الثاني، كما أن نيلسون لم يكن مثل (كولينغوود) الذي مارس قيادته تحت اشراف الأول. ولم يكن الاثنان يشبهان القائد الانكليزي (وولنغتون) الذي توج انتصاراته على نابليون في معركة (واترلو). وهكذا الأمر بالنسبة للمعارك، فلا معركة النيل تشبه معركة الطرف الأغر، ولا تشبه المعركتان معركة موسكو أو معركة (يينا) أو (واترلو) الخ.. واذن فلا مجال للمقارنة بين معركة ومعركة أو قائد وقائد لا في مكانة المعركة وأهميتها، ولا في نتائجها. ولقد سبقت الاشارة إلى أنه لولا (الطرف الأغر) لما كان الحصار القاري، ولولا هذا الحصار لما كانت حملة روسيا ولولا هذه الحملة لما كانت (واترلو). ذلك هو التسلسل الزمني لمسيرة الأحداث، وذلك هو النسيج التاريخي في مسيرته وتقدمه. غير أن هناك حقيقة، أو مجموعة من الحقائق التي لا يمكن اغماض الطرف عنها. فقد تكبد نابليون في حملته على روسيا خسائر فادحة لم يعرفها في حروبه من قبل. وكان الهم الاكبر للقائد (كوتوزوف) وشغله الشاغل هو تدمير اكبر ما يمكن تدميره من قوات (الجيش الكبير). وكان الهم الاكبر للاميرال (نيلسون) وشغله الشاغل

هو تدمير اكبر قـدر من سفن (الاسطول المشتـرك). وهكذا التقى القائدان على صعيد (التدمير) وكان هذا التدمير هو وسيلة النصر، إذ عرف القائدان بأن (وقود الحرب) يتطلب امكانات مادية ضخمة، وان استنزاف هذه الامكانات كفيل بارغام نابليون على تغيير ممارسـاته، وتبديل اساليبه، والوصول بالتالي الى الموقف الذي يرغم الامبراطور نابليون على الركوع والاستسلام وقبول الهزيمة، وهذا ما حدث في الواقع.

لقد كانت معركة (الطرف الأغر)معـركة حـاسمة عـلى طريق الصراع ضد نابليون في البحـر، وكانت (حملة روسيـا) ومعركتهـا، حاسمة على طريق الصراع ضد نابليون في البر، وكانت لهما نتائجهما المتشابهة في التأثير على مسيرة الصراع، غير أن نتائجهما غير المباشرة متبـاينة كـل التبـاين، فقـد مهـدت معـركـة الـطرف الأغـر لقيـام (الامبراطورية البريطانية-الاستعمارية). ولم تكن نتائج حملة روسيا-غير المباشرة-مشابهة، ولو أن روسيا القيصرية حاولت الحصول على نتائج مماثلة بالسـير على طـريق التوسـع القاري، عـلى حسـاب الـدولـة العثمانية-الاسلامية-فكانت حروب التوسع الروسية في شرق الاورال وآسيا على حساب العثمانيين، وهي الحروب التي كان من أبرزهـا (حرب القرم سنة ١٨٥٤).

لقد كان البحر الأبيض المتوسط هو مجال التنـافس، وميدان الحروب، لشعوب البحر الأبيض المتوسط بالدرجة الاولى، وصحيح أن بريطانيا أقامت قاعدة لها في جبل طارق سنة ١٧٠١، وصحيح أن البرتغاليين قد تمكنوا من منافسة الاسبانيين في غزو البحر الأبيض المتوسط لاقامة بعض القواعد على سواحل المغرب العربي-الاسلامي. غير ان البحر بقي نظيفاً نسبياً من القوى الخارجية حتى اقتحمت اساطيل نيلسون شرق المتوسط، وأقامت قواعد لها. وبدأت منذ ذلك التاريخ المنافسة الدولية للسيطرة على مياه هذا البحر، وفرض الهيمنة

على الشعوب المجاورة له، وقد تطورت التقنيات، فحلت (قدرة البخار) محل قوة الريح في دفع اشرعة السفن نحو الآفاق البعيدة، ثم جاء الوقود الذري ليحل محل البخار. وحلت المحركات الجبارة محل تلك المحركات البدائية. غير أن ذلك لم يكن الا تطويراً لاقتحام الميدان الذي افتتحه نيلسون ثم طوره الغربيون. وجاءت امريكا وروسيا لتحل محل دول الغرب. وذلك هو مكان معركة (الطرف الأغر) في النسيج التاريخي للعالم.

٣ ـ نيلسون وفن الحرب.

أظهر العرض السابق، وخاصة معركتي النيل والطرف الأغر، ما احدثه نيلسون من تطور في فن الحرب البحري. ويتطلب ابراز هذا التطور بالضرورة، طرح قضية التطور من خلال: أـوضع الصراع في افقه الصحيح. ٢ـتطبيق مبادىء الحرب. ٣ـالاساليب التعبوية ـالتكتيكيةـ في افق العمليات. ولقد سبقت الاشارة الى أن نيلسون لم يكن (استراتيجياً). ولم يأخذ بأسس الاستراتيجية كعلم له منهجه، وله آفاقه، وله صلته الوثيقة بالسياسة الاستراتيجية (أو السياسة العليا). وكان نيلسون (وفقاً لذلك) منصرفاً بكليته وبكل اهتماماته الى (أفق العمليات) وهذا ما جعل عقدة (البحر الأبيض المتوسط) تتحكم بسلوكه وتصرفاته، فتحجب عنه الرؤية الصحيحة للأمور، أو تحرمه من تقدير الموقف بصورة واقعية، الأمر الذي استثمره خصمه (فيللنوف) عندما خدعه فتوجه الى الهند الغربية (أمريكا اللاتينية). وقد يكون في ذلك بعض الحقيقة، لا الحقيقة كلها.

لقد كان (نيلسون) بحاراً بالدرجة الاولى، وكان مقاتلاً بالدرجة الاولى، وكان ما يهمه هو تحقيق النصر على مستوى العمليات، وتطوير الاساليب التعبوية ـالتكتيكيةـ التي تضمن له النصر. فكان يصل بذلك

الى النتيجة المتوخاة من تحديد الهدف الاستراتيجي. وقد ترك (نيلسون) معالجة القضايا الاستراتيجية لقيادته (وزارة الحرب) أو (الادميراليتي). وكان ادراكه لهذه الحقيقة هو الذي يدفعه للمحافظة على الاتصال الوثيق بوزارة البحرية، حتى يتلقى منها تعليماته وتوجيهاته بصورة مثيرة. ويظهر ذلك واضحاً فيما اتخذه (نيلسون) من استعدادات لمعركته المقبلة (الطرف الأغر) عندما كان في لندن، إذ انه لم يناقش قيادته لا في اهدافها ولا في مشاريعها، كما انه لم يطرح عليها (تطلعاته) ونظرته الى (الموقف السياسي-الاستراتيجي) في القارة الاوروبية، وفيما وراء البحار. ولقد اقتصر في مناقشته على (مخطط العمليات - أو - مذكرة القائد) ولا يعني ذلك أنه كان جاهلاً لعملية الارتباط الوثيق بين الهدف الاستراتيجي وبين هدف العمليات، وإنما كان يعني أنه كان مدركاً لأهمية انتصاره على مستوى العمليات، تاركاً لقيادته توظيف هذا الانتصار لمصلحة (السياسة الاستراتيجية).

عمل (نيلسون) كل ما يمكن عمله حتى تم له تدمير الاسطول الفرنسي في (معركة النيل). وكان انتصاره رائعاً على مستوى العمليات. فهل كانت نتائج هذا النصر محددة في افق العمليات فقط؟

وعمل (نيلسون) كل ما يمكن عمله حتى تم له تدمير الاسطول الفرنسي-الاسباني المشترك في معركة (الطرف الأغر) وكان انتصاره حاسماً على مستوى العمليات. فهل توقفت نتائج النصر عند حدود افق العمليات؟

لقد أخذ على (نيلسون) قصوره في ادراك المتحولات في السياسة الاستراتيجية، وتحكم عقدة (البحر الأبيض المتوسط) في تفكيره مما نجم عنه نجاح فيللنوف في التسلل الى الهند الغربية. ولكن! ألم يتمكن نيلسون من معالجة هذا القصور بفضل سرعته في التحرك، وبحثه الدائم عن المعركة، وكفاءته العليا على مستوى العمليات؟ ألم

يلحق بقائد اسطول خصمه (فيللنوف) ويرغمه على العودة الى اوروبا قبل أن يكمل مهمته؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد كان نيلسون قائداً للاسطول، ولم يكن رئيساً للدولة، وكان واجبه على مستوى الاسطول هو رفع الكفاءة القتالية لاسطوله، وقيادته الى المعركة، واحراز النصر. ولهذا فقد كان (واجبه) محدداً بأفق الاسطول والبحر والنصر، وأدرك نيلسون واجبه، وقام به على أفضل وجه، فليس من الغريب أن تكون آخر كلماته، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «**الحمدلله-أتممت واجبي لوطني**».

كان واجب (نيلسون) إذن هو في ادارة الحرب واحراز النصر، وهنا تَركز كل جهده، واستنفر كل امكاناته. فـ (نيلسون) هو تلميذ تاريخ الحرب، يعود في استلهام التجربة التاريخية حتى أقدم العصور، فيجد في القائد (ايبامينونداس) استاذاً له، ويجد في معركة (لوكترا) تجربة يمكن التعلم منها، ويعود الى مبادىء الحرب، فيختار منها ما هو مناسب لموقفه: (**المباغتة**) انها أقدم مبادىء الحرب واكثرها أهمية. ولقد مكنته هذه المباغتة من احراز انتصاره الحاسم في معركة النيل، وكانت مباغتته تلك مزيجاً من المباغتة الزمنية والمكانية، فقد ظهر نيلسون في وقت متوقع وضرب الاسطول الفرنسي وهو لا زال رابضاً على رمال مصر. فكانت المباغتة عاملاً حاسمًا في احراز النصر. ولكن كيف يستطيع نيلسون تحقيق هذه المباغتة في عرض البحر، وعدوه، متحفز مثله، للمعركة والقتال؟

هنا تكمن عبقرية (نيلسون) في تكييف مبادىء الحرب وتطويرها وفقاً لما يتطلبه الموقف. لقد كانت الأسلحة النارية لا تزال في بداياتها المبكرة، وكان اختيار الاساليب التعبوية-التكتيكية-المناسبة لتطور الاسلحة في مرحلة التجربة والاختيار. وقد أدرك (نيلسون) أنه من المحال استثمار هذا التطور في الاسلحة النارية الا عن طريق الكفاءة العليا في استخدام النيران، (السرعة والدقة) وكان ذلك

يتطلب بالضرورة الاقتراب من الهدف حتى المجال المجدي لعمل الأسلحة، ولو تطلب ذلك بعض المجازفة، فوضع بذلك الاساس لاقتران (النار بالحركة) والتقى بذلك مع تكتيك القوات البرية. وعلاوة على ذلك، فقد أدرك (نيلسون) أن حسم الصراع يتطلب (حشداً نارياً متفوقاً) وهذا ما دفعه لتجزئة المعركة، واختيار الاسلوب المناسب لحشد النيران على المؤخرة والانتقال بعد ذلك للوسط (القلب) ثم المقدمة. وقد كان اختيار هذا الاسلوب-الجديد-مباغتاً للاميرال فيللنوف وقيادته، الأمر الذي أربكه لبعض الوقت، وقد أفاد نيلسون من تأثير المباغتة لحسم الصراع قبل أن يستفيق الخصم من ذهوله.

لم يعتمد (نيلسون) في ادراته للحرب على (مبدأ المباغتة) وحده، ولو أن هذا المبدأ كان مهيمناً على سواه من المبادىء الاخرى، كالمبادأة، والحشد، والاقتصاد في القوى، واستخدام القوة الهجومية، وكانت الظاهرة المثيرة في ذلك هي تحقيق التوازن بين هذه المبادىء في إطار مخطط العمليات. ولكن، وعلى الرغم من الأهمية الكبرى في استخدام مبادىء الحرب وفقاً لما يتطلبه الموقف، ومع الأخذ بتطور التقنيات في التسلح بما يتناسب مع تطبيق هذه المبادىء. إلا أن الأمر الذي ساعد (نيلسون) على بلوغ اهدافه وتحقيق طموحاته هو: **بحثه الدائم عن المعركة، واستعداده الدائم للقتال**. ولعله بالامكان تصور (الاميرال نيلسون) في ثياب مصارع يقف على حلبة الصراع، مشمراً عن ساعديه، متحفزاً للوثوب على خصمه. بمجرد قرع الحكم على ترس التوقيت الذي يعلن به بدء الوقت المحتسب للصراع. ولقد كان وقت الصراع محدوداً، وكان العمل المطلوب انجازه في حدود الوقت (خمس ساعات تقريباً) عملاً كبيراً، يتلخص بتدمير اسطول كامل والقذف به من دائرة الصراع، ووضعه خارج القتال. غير أن الصراع لم يكن هنا بين رجلين وانما كان بين اسطولين، وبين قوتين، وهنا أيضاً يبرز الدور الحاسم للقائد، فقد استطاع (نلسون) نقل نفسية المصارع-اذا ما جاز

التعبير ـ لكافة أفراد اسطوله، فجعل منه فريقاً متكاملاً من المصارعين الذين يتحرقون شوقاً للمعركة، ويبحثون بشوق عن القتال.

على كل حال، فالصراع هنا ليس صراعاً رياضياً ينتهي بانتصار أحد الفريقين ضمن حدود خسائر زهيدة. ولقد فتحت الثورة الفرنسية، بقوانين التجنيد التي أصدرتها، عصر الابادة الشاملة، وأعادت الصراع الى بدائيته الوحشية البربرية، على نحو ما سبق عرضه في مقدمة هذا الكتاب، وانتقلت صورة هذا التطور الى (صراع البحر) وهكذا، ففي فترة خمس ساعات تقريباً، زال اسطول من الوجود وقتل من الطرفين المتصارعين في حدود عشرين ألفاً، وسقط عدد كبير من قادة السفن ـ وفي مقدمتهم قائد الاسطول البريطاني ذاته، نيلسون ـ ولم تكن هذه الظاهرة تعبيراً عن تطور القدرة النارية فحسب، أو نتيجة لتطور الاساليب التعبوية ـ التكتيكية ـ التي رافقت تطور الاسلحة بصورة حتمية، كما انها لم تكن ظاهرة معبرة عن تطور المفهوم الايديولوجي للحرب (كحرب ثورية ضد قوى تقليدية). وليست بدورها أيضاً تعبيراً عن التطور في حشد القوى والوسائط التي أصبحت متوافرة بفضل الثورة الصناعية وتعاظم الثروة المادية. انها تعبير في الواقع عن ذلك كله. لقد جسدت معركة (الطرف الأغر) صورة العصر بكل ابعاده، وبكل تطوراته وهنا تكمن قيمتها التاريخية. وإذا كانت هذه المعركة، من حيث حجم خسائرها المادية والبشرية، أشبه ما تكون بالمذبحة الرهيبة، فانها لم تكن في كل الاحوال، اكثر وحشية، أو أبشع صورة، من (حريق موسكو) أو مذبحة (يافا) فلقد سارت جيوش الثورة الفرنسية رافعة رايات الحرية والعدالة والاخاء لتنشر الموت في كل مكان تصل اليه. وكانت معركة (الطرف الأغر) صورة عن بداية هذا العصر وما وصل اليه من التطور. وكان على جيوش نابليون أن تدفع ثمناً مماثلاً لما دفعته الجيوش الاخرى.

يمكن العودة بعد ذلك الى النقطة ذاتها، نقطة (**البحث عن**

المعركة والاستعداد الدائم للقتال). لقد تولى (نيلسون) قيادة اسطوله، وهو يدرك يقيناً أنه يتوجه به نحو مغامرة محسوبة، غير أنها تحتمل قدراً غير قليل من المجازفة (وقد راهن نيلسون ذاته قبل المعركة على عدد السفن التي سيتم له تدميرها أو أسرها) وهي تحتمل فوق ذلك كله قدراً كبيراً من الخسائر المادية والبشرية. وعلى هذا، فلم تعد الحرب مجرد مسيرات عقيمة، ولا مناورات يتم اعدادها بمهارة وذكاء كبيرين لتجنب الخسائر، ما أمكن، وانما أصبحت مذابح اجماعية يستعد الطرفان المتصارعان (أو الأطراف المتصارعة) لدفع ثمنها. غير أن نيلسون لا يعطي لذلك وصفاً براقاً، ولا شعاراً مثيراً، ولا يقول لجنوده (بأن عشرين قرناً تطل عليكم من فوق الاهرامات) إن كل ما يقوله ببساطة (**ليقم كل واحد منكم بواجبه**). وما أشبه موقف نيلسون هذا، بموقف نظيره الروسي (كوتوزوف) الذي استطاع قهر (نابليون) ولم يتخل عن تواضعه أو بساطته.

هؤلاء هم الرجال الذين ابتلي بهم نابليون، وابتلوا به، فقهروا تعاظمه ببساطتهم، وتغلبوا على اقدامه بجرأتهم، وانتصروا على تسرعه بعملهم الدؤوب والمستمر، ولا ينتقص من قدر نابليون وكفاءته ما حققه هؤلاء الرجال من انتصارات حاسمة على قواته، وما حققوه من منجزات في احباطهم لمخططاته واسقاط لمشاريعه، بل إن الأمر على النقيض من ذلك، فلولا تلك العاصفة المدمرة التي أثارها نابليون في عالمه، لما ظهر امثال (كوتوزوف) و(نيلسون) و (ولنغتون) و (بلوخر) وأمثالهم. ولولا هؤلاء بدورهم، لما تألق نجم نابليون في صراعه. وقد كان من نتيجة الجهد المبذول على مسرح الصراع المسلح، في البر والبحر، أن اختبرت التطورات الجديدة في التسلح وفي ادارة الحرب، وفي اساليب خوض القتال على مستوى العمليات، واختبار الاساليب التعبوية-التكتيكية-المنفذة لذلك، وقد نجم عن ذلك تطورات حاسمة في كل المجالات المتعلقة بالصراع المسلح، ولو أن ثمن هذه التطورات

كان فادحاً، وعلى حساب دم الانسان وجهده وعرقه قبل كل شيء.

٤ ـ نيلسون، إنساناً وقائداً.

يولد النصر، فيحتضنه ألف أب وأم، وكلهم يزعم أنه والده، وأن له الفضل في انجابه واظهاره إلى الوجود، أما الهزيمة أو الفشل، فتلد يتيمة، لا أم لها ولا أب، يتنصل من بنوتها الجميع، حتى أصحابها الأصليين، فيقذفون بتبعاتها على الآخرين، أو على القدر إذا أعوزهم من يمكن التضحية به لدفع الثمن. وهكذا، فمنذ القدم، تعقد أكاليل الغار للمنتصرين، وتمجد الكتابات أعمالهم، وتحفظ المنحوتات آثار أمجادهم، وتسرع الجماهير لجر عرباتهم. بينما يمضي المنهزمون إلى زوايا مظلمة تحجبهم عن نور الدنيا حتى تخفيهم عتمة الآخرة. وقد لا يكون الأولون (المنتصرون) على مثل الفضائل التي يوصفون بها، كما قد لا يكون الآخرون (المهزومون) على مثل تلك النقائص التي يتهمون بها، وإذن وعلى ضوء هذه الحقيقة، يمكن التساؤل عن مدى صحة الأوصاف التي لصقت (أو ألصقت) بسيرة (الأميرال نيلسون) بطل معركة (النيل) ومن بعدها (الطرف الأغر)؟... لقد أقامت انكلترا لبطلها نيلسون نصباً في أجمل ساحة من ساحاتها، ورفعت تمثاله عالياً حتى ليكاد يلمس سحب السماء. ومن حق كل أمة أن تمجد أبطالها بالطريقة التي تتناسب مع تقاليدها وأعرافها وعاداتها.

وعملت الحكومة البريطانية، فور تلقيها نبأ مصرع نيلسون، على منح أخيه رتبة أمير (ايرل) وخصصت له راتباً سنوياً (٦ آلاف جنيه) ودفعت لكل من شقيقتيه مبلغ (١٠ آلاف جنيه). كذلك من حق كل دولة التعويض عن فقد أبنائها المدافعين عن حماها، المنافحين عن قيمها وفضائلها، الزائدين عن مصالحها، ما تعتقد أنه مناسب لحجم التضحية وقيمتها.

وعملت الحكومة البريطانية أيضاً على دفن جثة (نيلسون) في مقبرة (دير ويستمنيستر) الشهيرة، والمخصصة لكبار الرجال، وعظماء القادة، وأبطال الأمة. وهذا بدوره ما تفعله كل دولة تكريماً للافذاذ من الرجال الذين

يخصصون وجودهم لنصرة قضايا أمتهم وشعبهم. وإذن، فكل ذلك من الأمور المتوقعة والمعروفة لدى التعرض لسيرة (عظماء الرجال). ولكن هل يعتبر ذلك برهاناً ثابتاً وأكيداً على (قيمة) و(أهمية) من يقدم له مثل هذا التكريم؟

عندما وصل التابوت الذي يحمل جثة (نيلسون) إلى لندن، تدافعت جموع الشعب حتى حطمت التابوت والغانم هو ذلك الذي حصل على قطعة من خشب ذلك التابوت، يحتفظ به أثراً، يورثه لأبنائه دليلاً على أنه شهد ذلك اليوم، يوم وفاة بطل الأمة (نيلسون) وحضر جنازته، ولعل بعضهم اعتبر أن هذا الأثر يحمل نوعاً من التقديس، كما يفعلون عند الحصول على آثار القديسين والصالحين، للتبرك بآثارهم. وان هذه التظاهرة قد تحمل رمزاً بطولياً، أو مصلحياً، أو وطنياً، تمجده الأمة. غير أنها تحمل في الوقت ذاته مضموناً إنسانياً. لقد كان تأثير نيلسون بأفراد أمته تأثيراً عظيماً. وإذن فهم يكرمون فيه الإنسان قبل كل شيء.

عرف (نيلسون) أنه أصيب اصابة قاتلة عندما حمل الى (قمرته) وأسرع اليه قائد سفينته (هاردي) ومعه (القسيس) و (الطبيب الجراح) وبعض الأطباء، فما كان منه إلا أن صرفهم عنه بقوله: «**إذهبوا وعالجوا الذين فيهم رجاء للشفاء، واتركوني**».

تلك هي ميزة (الإنسان) الذي يحتفظ بإنسانيته في أصعب الظروف وأقساها، ويذكر ذلك بآلاف القصص التي ضمها التاريخ العربي ـ الإسلامي، لتلك النماذج الإنسانية الرائعة التي لا يمكن لها إلا أن تترك أصداء واسعة في الحياة وبعد الممات.

وكان (نيلسون) وهو يواجه الموت ويعاني سكراته، ما ينفك عن متابعة المعركة، وما يتوقف عن إبداء رغبته الشديدة في معرفة نتيجة الصراع. فكان كلما سمع صيحات البحارة المعبرة عن أسر إحدى سفن العدو حتى يطفح وجهه بالبشر، وحتى تنفرج أساريره بخطوط السعادة. وطلب أن يرى قائد

سفينته (القبطان هاردي) واشتد الحاحاً في طلبه، ولما تأخر هذا بسبب انصرافه للمعركة، ظن (نيلسون) أنه قتل، فانتابه حزن شديد أنساه ما يعانيه، حتى إذا ما أطل (هاردي) وهو يحمل بشائر النصر فيقول له: «إن المعركة في مصلحتنا. لقد عطلنا وأسرنا حتى الآن إحدى عشرة سفينة ونحن على وشك أن نتبعها بأربع أو خمس أخر».

وغمرت (الأميرال نيلسون) موجة من السعادة. لقد راهن قبل المعركة على عشرين سفينة، وها هو عدد السفن المعادية التي راهن عليها يقترب مما راهن عليه، وإذن فقد تحقق له ما يريد. وأخذ يردد: **«الحمدلله - أتممت واجبي لوطني»**. واستمر في ترديدها حتى لفظ أنفاسه. **وإذن! فقد كان كل طموح الأميرال (نيلسون) هو (أداء واجبه الكامل تجاه أمته ووطنه). وهل هناك ما يتمناه أي قائد في الدنيا، إذا كان قائداً بحق، وإذا كان مواطناً بإخلاص، أكثر من أن يؤدي واجبه. فليس من الغريب بعد ذلك أن يستحوذ (نيلسون) على محبة قادته وبحارته. وأن يفيد من هذه المحبة والتقدير لدفعهم على الدرب الذي يريد (درب أداء الواجب).**

كان الأميرال (كولينغوود) أول من اقتحم المعركة، وأول من تعمد بنارها، على نحو ما سبق ذكره، ووقف (نيلسون) يرقب الاشتباك وهو على متن سفينته (فيكتوري). وقد غمرته السعادة وهو يرى سفنه تخوض معركتها كما يريد وكما يرغب، تحت قيادة معاونه (وود) ولم يلبث أن التفت ليقول لمن حوله بحماسة: «أترون كيف يحسن كولينغوود أداء واجبه!» في هذه اللحظة بالذات كان (كولينغوود) يقود سفنه وهو سعيد لأنه أول من فتح نار المعركة، فقال لمن حوله: «كم تظنون أن الأميرال نيلسون يدفع لنقابضه الموقف؟». وفي هذه اللحظة أيضاً، كان قائد الأسطول الفرنسي - الاسباني المشترك (فيللنوف) يتابع تحركات سفن الأسطول البريطاني (المعادي) ولم يسعه إلا أن يبدي إعجابه بالكفاءة العالية التي ظهرت على تحركات الأسطول المعادي فقال: «إن سفناً تسير على هذا النحو لا يفوتها النصر».

فبماذا توحي هذه المقولات الثلاثة؟ وما هو مضمون تلك المو قف التي عبرت عنها المقولات المذكورة؟ لقد كان قادة الأسطول البريطاني يعرفون يقيناً مدى شوق قائدهم (نيلسون) لخوض المعركة، والذي كان على استعداد لدفع أي مبلغ حتى يكون سباقاً للقتال. وكان (نيلسون) ينظر بتقدير وإعجاب إلى قادته، وإلى بحارته، الذين استطاعوا التكيف مع مخططه الذي أحكم خطوطه من أجل بلوغ الهدف وتحقيق النصر. وكان قائد الأسطول المعادي (فيللنوف) يدرك مدى تفوق الأسطول البريطاني في التنظيم للمعركة وخوضها، فعرف مسبقاً أن الظروف متوافرة أمام أعدائه لاحراز النصر على أسطوله الذي يفتقر للتنظيم والكفاءة. وعلى هذا، فقد تقرر مصير المعركة من قبل أن تبدأ، فقد كان نيلسون وقادته يندفعون إلى المعركة وهم على ثقة من إحراز النصر، وكان (فيللنوف) يخوض معركته والشك يساوره بإمكان النجاح فيها، أو الخروج منها. وكان ذلك هو عامل حاسم، فما من معركة تضيع أو تفشل إلا إذا أراد قائدها لها أن تفشل، أو أنه فقد الثقة بإمكانات تحقيق النجاح فيها. ذلك لا يعني أن القوات الفرنسية ـ الاسبانية قد خاضت معركتها بشجاعة أقل من تلك التي أظهرها المقاتلون الانكليز. فقد شهد قادة السفن من الطرفين للمقاتلين باندفاعهم وحماستهم، غير أن الأولين كانت تعوزهم الكفاءة في قيادة السفن بقدر افتقارهم للكفاءة في إدارة النيران، وهو ما كان يتفوق به البحارة الانكليز على خصومهم. وعلاوة على ذلك، فقد كان الأسطول الانكليزي يعمل كفريق متكامل، على الرغم من ترك المجال مفتوحاً أمام المبادءات الفردية لقادة السفن، في حين كان الأسطول الاسباني ـ الفرنسي يعمل بشكل فردي، على الرغم من مركزية القيادة، ويظهر ذلك واضحاً في تأخر سفن مقدمة الأسطول الفرنسي عن الدخول في المعركة، والحاح قائد المقدمة على (طلب الأوامر بدخول المعركة) وانصراف سفن هذه المقدمة بعيداً عن ميدان المعركة من غير انتظار أوامر بذلك. وإذن فقد خاض الأسطول الانكليزي معركته كفريق واحد، وخاض الأسطول المشترك معركته كمجموعة مفككة

لا رابطة قوية تربطها بعضها ببعض. وإذا كان الفضل في عمل الأسطول البريطاني يعود إلى تلك الروح التي استطاع (نيلسون) أن يبعثها في أسطوله، فإن (فيللنوف) لا يحمل يقيناً مسؤولية تلك الروح التي هيمنت على الأسطول المشترك، ولقد اتهم (فيللنوف) بالانهزامية، غير أن الأسباب التي أثارت فيه تلك الروح لم تحدد بوضوح كاف. فهل كان سببها هو حشد أسطول يضم قطعاً تابعة لدولتين مختلفتين في أهدافهما من الحرب، وغير متكافئتين في قدراتهما العسكرية؟ أم هل يعود السبب لضياع الثقة مما تركته رواسب الثورة بين القادة من مختلف الرتب، وجاءت السياسة النابوليونية لتعمل على تطويره؟ . . . في الواقع، هناك أسباب كثيرة يمكن إضافتها للعاملين السابقين بعضها يعود إلى أشخاص القادة، وبعضها يعود إلى الموقف السياسي - الاستراتيجي وانعكاساته على التنظيم العسكري. وكان لا بد لكل ذلك من ضحية وجاء (فيللنوف) وأسطوله ليمثلا تلك الضحية.

لقد سبقت الإشارة، وفي مناسبات عديدة، إلى ما كان يتمتع به (نيلسون) من محبة وتقدير كبيرين في وسط ضباطه وجنوده، فهل كان مرد ذلك إلى طبيعة (نيلسون) إنساناً؟ أم كان لأنه (**قائد**) **ناجح يسير النصر في** ركابه؟ في الواقع، كثيراً ما تندمج الفضيلتان في شخصية القائد الناجح. فالبساطة في السلوك والممارسة، والحرص على تأمين متطلبات المقاتلين واحتياجاتهم، واتخاذ ترتيبات الأمن الضرورية لحمايتهم، كل ذلك مما قد يحمل على (إنسانية القائد) بقدر ما يحمل أيضاً على كفاءته في الإدارة ونجاحه في ممارسة القيادة.

هكذا كان (نيلسون) إنساناً وقائداً، خدم وطنه. وأدى واجبه، وسيبقى رغم تقادم الزمن علماً من أعلام قادة البحر. كما ستبقى معاركه وبصورة خاصة (الطرف الأغر) نموذجاً واضحاً لروح العصر الذي جرت فيه.

لقد حملت بداية القرن التاسع عشر معها مجموعة من القادة العظام

الذين أثروا فن الحرب بتجاربهم، وعملوا على تطويره بكفاءتهم وتضحياتهم، وسيبقى اسم (نيلسون) مع تلك الطليعة التي وسمت قرناً من عمر الزمن بميسمها الخاص. وقد يكون بالمستطاع تحقيق بعض الفائدة من تلك التجارب. غير أن الفائدة الكبرى هي في استقراء الملامح الخاصة بكل واحد منهم (إنساناً وقائداً) إذ يبقى الإنسان، بانفعالاته وعواطفه، بأحلامه وأفكاره، هو العنصر الأكثر ثباتاً عبر التاريخ.

بسام العسلي

الفهرس

صدر للمؤلف عن
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

(أ) مجموعة مشاهير قادة العالم:

١ ـ الاسكندر المقدوني.

٢ ـ هانيبال (هاني بعل).

٣ ـ يوليوس قيصر.

٤ ـ مارلبورو.

٥ ـ فريدريك الكبير.

٦ ـ بطرس الأكبر.

٧ ـ جورج واشنطن.

٨ ـ نابليون بونابرت.

٩ ـ كوتوزوف.

١٠ـ نلسون.

١١ـ بيجو.

١٢ـ فون مولتكه.

يصدر قريباً:

(ب) الحرب والحضارة.

(ج) مذكرات ليدل هارت (مترجم)

يصدر قريباً: الحرب المباغتة، والمباغتة في الحروب العربية الإسرائيلية.

دار نعمـة للطباعـة
الرمـلة البيـضاء
تلفـون: ٨٠٢٢٤٦ ـ بيروت



نشأ نلسون في البحر، وعاش فيه، وبين أمواجه مات. عاصر في حياته أحداثاً مثيرة، ولم يكن أقلها انتصار الثورة الأميركية، ثم انتصار الثورة الافرنسية، وما تبع ذلك من صراعات دولية شاملة.

خاض نلسون معارك كثيرة ربح أكثرها، غير أن أعظم معركة خاضها الأميرال نلسون كانت معركة «الطرف الأغر»، تلك المعركة التي خلدها الانكليز حين اطلقوا اسمها على ساحة من أجمل ساحات العاصمة البريطانية «لندن» حيث ينتصب تمثال نلسون فوق نصب تذكاري شامخ يطول الضباب ارتفاعاً.

لقد تميز نلسون بمجموعة من الفضائل الحربية التي أهلته لبلوغ أهدافه وتحقيق انتصاراته، ولعل من أبرز فضائله البحث الدائم عن المعركة والإمساك أبداً بالمباغتة، والإصرار على انتزاع النصر، فضلاً عن الكفاءة القيادية العالية في التخطيط للمعركة وإدارتها. وكان يدعم تلك الفضائل قدرة نلسون على اكتساب ثقة مرؤوسيه ومحبتهم واخلاصهم في طاعته، على أن ذلك لا يمنع من القول بأن طريق نلسون لم تكن خالية من الأشواك، فقد كانت انتصاراته سبباً في استثارة خصومة حاسديه، ومع هذا فإن أصداء انتصارات نلسون البحرية كانت تنعكس قوية على صفحة القارة الأوروبية، إن لم تكن على صفحة العالم بأسره.

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً «موكيالي» بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الثمن ٩ ل.ل.
أو ما يعادلها